أولادنا

بينوكيو

دار المعارف

أولادنا

٧

پينوكيو

الطبعة السابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

١

يُحكَى أنّ ....

سيقول قُرّاءُ الصّغار : « يُحكى أنّ ملكا ... » ، لا يا أصدقائى ، يُحكَى أن قطعةً من الخشب ، لم تكن أحسنَ الخشب ، بل من الخشب العادىّ ، الذى نستعمله فى الأفران والمدافئ ، لإيقاد النار وتدفئة الغُرَف فى الشّتاء ....

كانت هذه القطعة من الخشب فى دكّان نجار عجوز اسمُه السيد « أنطونيو » ، وإنْ كان الناسُ جميعاً يسمُّونه السيّد « كَبريزة » لأن طرَف أنفِه كان دائماً أحمرَ لامعاً ، مثل « الكريزة » الناضجة تماماً بنام .

فلما رأى السيّد « كريزة » هذه القطعةَ من الخشب سُرَّ سروراً عظيماً ، وفرَك كفَّيْه فرحاً وقال لنفسه :

« إن هذه الخشبة قد جاءت فى الوقت المناسب تماماً ، فهى بالضبط ما كنت أبحث عنه من زمن بعيد لكى أعمل رِجلاً للكلب الصغير .

وقام فى الحال ، فتناول قدُومه واستعدّ لنزع القشرة وتسويتها كما يريد .

لكنّه عند ما رفع يده بالقدُوم لينزل على الخشبة بالضّربة الأولى ، توقفتْ يده فى الهواء ، لأنه سمع صوتاً رفيعاً ، رفيعاً يقول له محذّراً :

لا تصرخي بشدة !

تصوّروا دهشة السيّد «كريزة» في تلك اللحظة .

لقد تلفّت حوله في الدكّان خائفاً ، باحثاً عن الجهة التي يُمكن أن يكون الصوت قد جاءه منها . لكنه لم يرَ أحداً . نظر تحت « بنكه » ... لا أحد ! فراح إلى خزانة كانت مُقفلة دائماً ففتحها ونظر فيها... لكن ما من أحد ! فنظر في سلة كان يرمي فيها النشارة وبقايا الخشب ... لا أحد ! ففتح باب الدكان ونظر خارجه ... ما من أحد ! إذن ما الحكاية ؟

وأخيراً ضحك وحكّ « قرّاعته » وقال : « آه ، فهمت . لا بدّ أنّ خيالي قد صوّر لي أنني أسمع هذا الصوت . فما دام الأمر كذلك ، فلنشتغل إذن ! »

وتناول قدّومه ثانية ورفعه في الهواء ثم نزل به على قطعة الخشب .

فقال الصوت الرفيع « آي ، إنك توجعني ! »

لقد ضُبِطَ السيّد «كريزة» هذه المرة ، وخرجت عيناه من وجهه خوفاً وفزعاً ، وانفتح حنكه ، وتدلى لسانه فوق ذقنه ، وأصبح جامداً

كالتماثيل الموجودة في النافورات !

وبعد فترة يرجف من شدة الرعب . فلما هدأ وأمكنه أن يتكلم قال متمتماً : «ولكن من أين يجيء هذا الصوت الرفيع الذي قال : " آي ! " ؟ ليس في هذا الدكان مخلوق ! أيمكن أن تكون قطعة الخشب هذه قد تعلمت البكاء والشكوى كما يبكي الأطفال ويشتكون ؟!! لا يمكنني أن أصدق هذا . إن قطعة الخشب هذه — انظر إليها ! — ليست إلا من ذلك الخشب الذي نُوقد به النار ، كأي قطعة أخرى ، فإن وضعتها في النار ساعدت على غليان الماء . هل يمكن أن يكون أحد ما مختبئاً فيها ؟ ! إن كان الأمر كذلك ، فلا يلومن إلا نفسه ، فإني لا بد أن أنظر في أمره ! ! » .

وأمسك الخشبة المسكينة بيديه الاثنتين ، وبدأ يضرب بها في الحائط ضرباً شديداً من غير رحمة .

ثم توقف وأنصت . وبقي مُنْصتاً دقيقتين ، لكنه لم يسمع شيئاً ... خمس دقائق ، لا شيء ! عشر دقائق .... لا شيء أبداً ! ففحك وحكّ « قرّاعته » وقال : « الآن فهمت . إن خيالي هو الذي صوّر لي سماع هذا الصوت الرفيع الذي قال : " آي " ! . وما دام الأمر كذلك ، فلنشتغل إذن ! »

ولما كان يشعر في قرارة نفسه بالخوف الشديد ، فقد راح يغنّي تشجيعاً لنفسه .

وترك القدّوم وأمسك الفارة ، وبدأ يصقل الخشبة ويسوّيها . لكنه

ما لبث في أثناء ذهاب القارة ومجيئها فوق الخشبة، أن سمع ذلك الصوت الرفيع يقول صاحكاً : « كي ، كي ، إنك تُدغدغني !!! »

لقد ساقط السيد « كريزة » المسكين هذه المرة على الأرض من شدة الخوف . فلما فتح عينيه بعد ذلك ، كان لا يزال جالساً على الأرض ، وقد تغيّرت سحنته تماماً، حتى لتصعُب عليك معرفته . فطرف أنفه الذي كان دائماً لامعاً ، أصبح من شدة الخوف أزرق باهتاً .

٢

في هذه اللحظة دُقّ الباب .

لكنّ النجار لم يكن قادراً على الوقوف على قدميه فقال :

« ادخل ! »

ودخل الدكّان رجلٌ صغيرُ الجسم خفيف الحركة اسمه « جيبتّو » وإنّ كان الأولاد من أهل تلك الجهة يسمّونه السيّد « عصيدة » مداعبةً له . لأن « قرّاصته » كانت بلونها الأصفر شبيهةً بالعصيدة ....

وكان جيبتّو هذا من الناس الذين يغضبون بسرعة . ويا ويل مَن يناديه باسمه الجديد : « عصيدة » إنه حينئذٍ يستشيط غضباً، فلا يستطيع أحدٌ أن يكلمه .

قال جيبتّو : «صباح الخير يا سيّد أنطونيو! لماذا تجلس على الأرض بهذه الصورة ؟ » .

— أعلّم النملّ القراءة !

— عال ، عال ! مباركٌ عليك .

— وما الذي جاء بك إلى هنا يا سيّد جيبتو ؟

— فلداي ! هل تعرف يا سيد أنطونيو أنني جئت أطلبُ منك معروفاً ؟

فقال النجار وهو يقف على قدميه : « بكل سرور ! أنا في خدمتك » .

— لقد خطرتْ لي هذا الصباح فكرة .

— وما هي ؟

— خطرَ لي أن أصنع « أرجوزاً » لطيفاً من الخشب ، « أرجوزاً » مُدهشاً . « أرجوزاً » يرقص ويبارز ويتقلّب في الهواء ، فأدور به حولَ العالم ، فأكسب بفضله قوتَ يومي . فما قولك في هذا ؟

فصاح الصوت الرفيع يقول : « مرحى ! مرحى ! أيها السيد « عصيدة » ! » .

بيد أنّ جيبتو صوتاً يناديه باسم « عصيدة » ، فغضب غضباً شديداً ، واحمرّ وجهه حتى أصبح في لون الطماطم ، والتفت بسرعة إلى النجار وقال غاضباً :

— كيف تجرؤ أن ؟

— من الذى هزّأ بك ؟
— أنت ، أسميتنى « عصيدة » .
— لا ، أبداً ، لم أقل لك ذلك .
— إنى متأكد من أنك أنت الذى قلت لى ذلك .
— لا !
— نعم !
— لا !
— نعم !
— لا !
— نعم !

وزاد كلٌّ منهما هياجاً وغضباً وضاربا . وشدّ كلٌّ منهما « قراعة » زميله ، بل لقد صفع كلٌّ منهما الآخر وعضّ وأحدث بوجهه خدوشاً .

فلما انتهت المعركة وجد السيد أنطونيو فى يده « قراعة » جيبتو الصفراء ، فى حين كانت « قراعة » السيد أنطونيو الرمادية اللون ، بين أسنان جيبتو .

قال أنطونيو : أعطنى « قراعتى » !
— وأنت أعطنى « قراعتى » ، ولتصالح !
ووضع كل منهما « قراعته » على رأسه ، وتصافحا .

وأراد النجار أن يبرهن لصديقه على أنهما متصافيين فقال : « والآن يا عزيزى جيبتو ، ما الذى يمكننى أن أعمله لك ؟ » .

— أريد قطعة خشب صغيرة أصنع منها « أرجوزى » . فهل تعطينى ما أطلب ؟

فراح السيد أنطونيو إلى « بتكه » مسروراً ، وتناول الخشبة التى كانت سبباً فى أصابه من فزع شديد . فلما هَمّ بإعطائها صديقه ، اهتزّت وسقطت من يده على ساق جيبتو المسكين ، فآلمته ألماً شديداً موجعاً .

— آىّ ! هذه يا سيد أنطونيو طريقةٌ لطيفةٌ فى تقديم الهدايا ! لقد أعرجتنى !

— أقسم لك بشرفى إنى لم أفعل ذلك !
— إذن ، أنا ، الذى فعلته ؟
— إنها قطعة الخشب هذه ... إنها غلطتها ...
— نعم . أنا أعرف أن الخشبة خبطتنى ، ولكنك أنت رميتها على ساقى !
— لا ، لم أرمها .
— كذّاب !
— جيبتو ، لا تشتمنى ، إنك إن شتمتنى أسميتك « عصيدة » !
— أنت مخطئ !
— « عصيدة » !

— حمار !

— « عصيدة » !

— قردٌ قبيح المنظر !

— « عصيدة » !

ولما سمع جيبيتو صاحبه يسمّيه « عصيدة » للمرة الثالثة ، غضب غضباً شديداً وهجم عليه . وكانت بينهما معركة ثانية أشدّ من الأولى وأسوأ .

فلما انتهت ، كان بأنف السيد أنطونيو خدْشان ، وفقدَ السيد جيبيتو زرّين من أزرار سترته . . .

ثم صُفّيَ الحساب بينهما ، وتعاهدا على أن يبقيا طول حياتهما صديقين مخلصين متصافيين .

وأخذ جيبيتو خشبته ، وبعد أن قدّم الشكر للسيد أنطونيو ، رجع إلى البيت وهو يعرج .

٣

كان جيبيتو يسكن غرفة صغيرة بالطابق الأرضيّ يدخلها النور من نافذة تحت السلم . كل ما فيها من أثاث كرسيٌّ يكاد لا يقوى على الوقوف ، وسريرٌ كسيح ومائدة تكاد تقع .

وكانت بالغرفة مِدْفأة بها نار مُوقدة ، غيرَ أنّ النار لم تكن في الحقيقة إلا صورةً مرسومةً على الحائط ، يتعلّموها في الرسم مبرّجل (غلاية) يغلي الماء فيه . فيخرُج الدخان منه سحاباً كثيفاً يرتفع في الجوّ كأنه بخارُ ماءٍ حقيقيّ !!!

ما إنْ وصل جيبيتو إلى بيته حتى تناول عُدّته ، وبدأ ينحت أرجوزه .

وقال لنفسه : « ماذا أسمّيه ، أعتقد أنّ اسم "بينوكيو" مناسبٌ . إنه اسم يجلب لصاحبه الحظّ الحسَن . كنت أعرف في ماضي أسرة أعضائها جميعاً اسمهم بينوكيو : الأب بينوكيو والأم بينوكيو والعيال كل منهم اسمه بينوكيو ، ولقد عاشوا جميعاً سعداء في أحسن حال : كان أغناهم شحاذاً متسوّلاً فقيراً مُعدماً ....

وبعد أن اختار لأرجوزه اسمه ، راح يعمل بهمّة ، حتى فرَغ في وقتٍ قصيرٍ جداً من صُنع شعره وجبهته وعينيه . فلما أتمّ صُنع عينيه ....

تصوّروا دهشته حين رآهما تتحركان وتنظران إليه نظراتٍ حادةً شديدةً !

حين رأى جيبيتو العينين الخشبيتين تنظران إليه وتراقبانه ، لم يُعجبه ذلك منهما وقال مُغضَباً : « أيتها العينان الخشبيتان ، لماذا تنظران إليّ ؟ »

لكنه لم يسمع جواباً !

وصنع بعد العينين الأنف . فما إن انتهى منه حتى رآه ينمو ويكبر !

ويكبر ، ويكبر . . . حتى صار بعد دقائق قليلة أنفاً طويلاً ، كأنه ليس لطوله نهاية !

فراح المسكين يعمل في هيئة كبيرة وسرعة لإقناص طوطا . لكنه كان كلما أنقص من طوطا قليلا ، زاد الأنف الوقح طولا !!!

وبعد الأنف صنع جيبتو الفم . لكنه ما كاد ينتهي من صنعه حتى بدأ الفم يضحك ويهزأ به . فقال جيبتو محتداً غاضباً : « كفى ضحكاً ! » لكنه كان كالمتكلم بكلام الحائط . . . فصاح مهدداً : « أقول لك كفى ضحكاً ! »

فتوقف الفم عن الضحك وأخرج لسانه !

وكان جيبتو يريد ألا يفسد ما بينه وبين أرجوزه ، فتظاهر بأنه لم ير شيئاً ، واستمر في عمله . وصنع بعد الفم الذقن ثم الرقبة ، ثم الكتفين ، ثم البطن ، ثم الذراعين ، ثم اليدين .

فلما انتهى من صنع اليدين خطفت « قراعته » من فوق رأسه . فلما نظر إلى أعلى رأى قراعته الصغراء في يدي الأرجوز . فقال : « پينوكيو ، أرجع لي " قراعتي " حالا ! » .

لكن پينوكيو بدلا من أن يُعيد القراعة وضعها على رأسه هو فغطته كله ، من رأسه إلى قدميه .

لقد شعر جيبتو المسكين بالحزن الشديد لأول مرة في حياته بسبب ذلك السلوك المهين الساخر ، فالتفت إلى پينوكيو وقال : « أيها الابن العاق

العين ، إنك لم تكتمل بعدُ ، ومع ذلك فقد بدأت تعصي أباك ! هذا أمر قبيح يا ولدي ، قبيح جداً أجداً !!! » .

ومسح دمعة تحدرت من عينه على خده .

وبقيت الساقان والقدمان .

فلما انتهى من صنعهما شعر المسكين برغبة شديدة في ركله . فقال محدثاً نفسه :

« هذا جزاءٌ حسنٌ ولا شك . كان يجب أن أفكر في هذا قبل فوات الأوان ! » . ورفع « الأرجوز » من يديه ، ووضعه على الأرض ، ليرى هل يقدر على المشي .

لكن رجلي پينوكيو كانتا يابستين ، لا يعرف كيف يحركهما . فأخذه جيبتو من يديه وعلمه كيف يضع قدماً أمام قدم .

فلما لانت رجلاه ، راح پينوكيو يمشي وحده ويجري في الغرفة ، ثم انساب من الباب إلى الشارع ، وانطلق يجري .

وجرى جيبتو المسكين وراءه مسرعاً ، لكنه عجز عن إمساكه ،

لأنّ الذين كان يقفز كالأرانب . وكانت قدماه الخشبيتان ، تطرقعان ، وتُحدثان ضجة كأنهما عشرون قيقاباً من الخشب .

وكان جيبتو يصيح : « أمسكوه ! أمسكوه ! » . لكنّ الناس لما رأوا ، الأرجوز ، الخشبي يجري منطلقاً كأنه حصان السباق ، خلقوا فيه مدعورين متعجبين ، ثم ضحكوا وضحكوا حتى وجعتهم جنوبهم .

وأخيراً ظهر شرطيّ ، صادفته المصادفة السعيدة . فقد سمع الشرطيّ وقع القدمين الخشبيتين على الأرض فحسب أنّ حصاناً هرب من صاحبه ، فوقف بشجاعة في وسط الشارع ، وقد باعد ما بين قدميه ومدّ ذراعيه . . . . هل وقفه منعاً للعواقب الذميمة ؟

ورأى بينوكيو الشرطيّ من بعيد ، فقرّر أن يمرّ بين رجليه . لكنه أسقط إخفاقاً ذريعاً . . . .

فأمسكه الشرطيّ من أنفه وأعاده إلى جيبتو الذي أراد أن يشدّ أذنيه عقاباً له . . . .

تصوّروا يا أصدقائي ما شعر به جيبتو في تلك اللحظة لما لم يجد أرجوزه أذنين يشدّهما ، أتعرفون السبب ؟ إنه كان مستعجلاً فنسيَ أن يصنع أذنيه !!! وعندئذ أمسكه من رأسه ، وعاد به إلى البيت وهو

يهزّه مهدّداً ويقول له : « تعال معي إلى البيت . فسأصفّي الحساب معك ! » .

لما سمع بينوكيو هذا الإنذار ، رمى نفسه على الأرض ، ورفض أن يمشي خطوة واحدة . واجتمع حولهما خلق كثير من المتفرجين ومن لا عمل لهم . وراح بعضهم يقول شيئاً ويقول آخرون شيئاً آخر .

فبعضهم قال : « مسكين الأرجوز ! إنه محق حين يرفض الذهاب إلى البيت . فمن ذا الذي يعرف ما ينتظره هناك من ضرب شديد على يد هذا الرجل الشرير ، جيبيتو ؟ ؟ » .

وأضاف بعضهم إلى هذا في حين قوله : « جيبيتو رجل طيب في الظاهر . لكنه في الحقيقة قاسٍ . فإذا تُرك معه الأرجوز المسكين فربما قطّعه إرباً ! ! ! » .

لقد قالوا كثيراً وأعادوا كثيراً ، إلى أن حضر الشرطي ، وقرر أن يأخذ جيبيتو إلى السجن . وعجز الرجل عن الدفاع عن نفسه ، وكان في الطريق إلى السجن يبكي ويقول :

— أيها الابن اللعين ، يؤلمني أن أذكّر جهدي وتعبي فيك لأسمع " أرجوزاً " تافهاً . لكنني أستحق ذلك ، وأكثر من ذلك . فقد كان الواجب أن أعرف أن هذا الذي حدث سوف يحدث .

فأما الذي حدث من بعد ذلك ، فهو أكثر ما يمكنكم أن تتصوروه يا أصدقائي . وسأرويه لكم في الفصول التالية .

٤

عند كما ان جيبيتو المسكين يُساق إلى السجن ، دون أن يرتكب ذنباً . كان ذلك اللعين بينوكيو — وقد تُرك حراً — يجري في الحقلان ليتمكن من الوصول إلى البيت من أقصر طريق . وكان في أثناء ذلك يقفز فوق الجسور والحواجز الشوكية ، والحفر المملوءة بالماء ، كأنه الأرنب المطارد من الصيادين .

ووجد باب البيت مُقفلاً ، فدفعه فانفتح ، فدخل منه ثم أغلقه وراءه ، وأحكم إغلاقه . ثم استلقى على الأرض وتمشى الصعداء ، دليلاً على شعوره بالراحة .

لكن الراحة لم تدُم طويلاً ، فقد سمع صوتاً في الغرفة يقول :

« كُرِي... كُرِي... كُرِي... ! »

فقال بينوكيو فزعاً : « من ذا الذي يناديني ؟ » .

« أنا ... » .

فالتفت بينوكيو فرأى صرصوراً كبيراً يزحف على الحائط .

— قل لى أيها الصرصور ، من أنت ؟

— أنا الصرصور المتكلم ، عشت فى هذه الغرفة مائة عام .

— لكن هذه الغرفة أصبحت اليوم غرفتى . ويسرنى أن تخرج منها حالا .

— لن أتركَ هذا المكان قبل أن أقول لك حقيقة لا تسرك .

— وما هى ؟ أسرع بقولها !

— ويلٌ للأطفال الذين يعصون آباءهم ، ويهربون من بيوتهم . إنهم لن يروا السعادة فى هذه الدنيا أبداً ، سيندمون على ذلك أشد الندم .

— زُحْ حالك ، وامضِ فى غنائك أيها الصرصور . أما أنا فإننى سأرحل غداً عند شروق الشمس ، لأننى إن بقيت هنا حدث لى ما يحدث لغيرى من الأطفال : سأُرْسَلُ إلى المدرسة لأذاكر وأتعلم ، رضيتُ أم لم أرضَ . وأنا لا أريد أن أتعلم . وسأكون أسعد حالا إذا انطلقتُ حرًّا ، أطارد الفراش وأتسلق الأشجار لأسرق أعشاش العصافير .

— أيتها الأبله المسكين ، إنك إن قضيتَ وقتك على هذه الصورة أصبحتَ — متى كبرت — حماراً عظيماً !

— اسكتْ أيها الصرصور الثقيل .

لكن الصرصور كان فيلسوفاً صبوراً ، فلم يغضب ، بل استمرّ يقول ناصحاً :

— ثم لماذا لا تتعلم حرفةً إن كنت تكره المدرسة . فتتمكّن من كسب قوتك من طريق شريف !

فردّ بينوكيو ، وقد فقد صبره ، فقال :

— هل تريد أن تعرف رأيى ؟ كلُّ الحرف فى هذه الدنيا لا تناسبنى منها إلا حرفةٌ واحدةٌ .

— وما هى ؟

— أن آكل وأشرب وأنام وأكسل من الصباح إلى المساء !

قال الصرصور المتكلم فى صبر وهدوء :

— دعنى أقول لك إنّ أصحاب تلك الحرفة ينتهى بهم الحالُ فى الغالب إلى المستشفى أو السجن !

— حاذرْ ، حاذر ، أيها الصرصور المشئوم ، إن أغضبتنى فلا تلومنّ إلا نفسك !

— إننى أيها المسكين بينوكيو متألمٌ لك أشدّ الألم .

— ولماذا ؟

— لأنك ، أرجوز ، وأسوأ من هذا أن رأسك من خشب !

فضاق بينوكيو ذرْعاً بالصرصور ، وأمسك القَدُّوم الخشبية ورماها عليه ، ولعله لم يكن يُريد أن يُؤذيه ، لكنّ القَدُّوم ، لسوء الحظ ، أصابت الصرصور فى رأسه فقتلته فى الحال ، دون أن تترك له وقتاً ليقول

غيرَ ما قال ، إلا صيحة أخيرة: «كُرِي ... كُرِي ... كُرِي!» ثم تمدَّد يائساً على الحائط وبقي مشنوقاً به .

٥

حَيَّم الظلام ، وتذكَّر پينوكيو أنَّ ليس لديه ما يأكله . وكان يُحِسُّ بانقباض في الشهوة ... والشهوة في الأطفال تزيد وتنمو بسرعة عجيبة ، ثم أصبح هذا الإحساس بعد دقائق جوعاً شديداً . ثم لم يلبث أن أصبح جوعاً شديداً خطراً ، كجوع الذئاب ، حتى كان من المحتمل أن يأكل المسكين أظافره من شدة الجوع !

وجرى إلى المِرْجل الذي يغلي ، ليرفع غطاءه ويرى ما فيه . لكن المِرْجل لم يكن إلا رسماً على الحائط ، فشعر المسكين بخيبة شديدة ! حتى لقد زاد أنفه طولاً على طول .

وراح المسكين يجري في أرجاء الغرفة مفتشاً في كل ركن ومَخزَنة ، عن كِسْرة من الخبز ولو نافشة ، أو عظمة تركها كلب ، أو شوكة سمكة أو أيّ شيء يمكن مَضغُه . لكنَّه لم يجد شيئاً على الإطلاق !

وكان جوعه في أثناء ذلك يزيد ويَشتدّ . فلما لم يجد شيئاً يأكله ، جلس يتثاءب ... لقد راح يفتح فمه بالشُّوَيْعاء واسعاً واسعاً ، حتى وصل إلى ما وراء أذنيه . فلما انتهى من تثاؤبه ، بصَق وكأنَّ لم تكن له معدة على الإطلاق .

ولما اشتدَّ به اليأس بكى وقال : «لقد كان الصرصور المتكلم محقّاً ، فأنا أخطأت حين عصيتُ أبي وهربت منه . فلو أنّ أبي كان هنا الآن ، لما بقيتُ أتثاءب حتى لكأنني سأموت . إن الجوع مرَضٌ مفظع ! »

وسرعان ما رأى في كومة من الزبالة شيئاً كأنه بيضة . فقفز بسرعة وانقضّ عليه فأمسكه . لقد كان بيضةً فعلاً .

ويستحيل عليّ أن أصف لكم فرحه بتلك البيضة . فلكم أنتم أن تتصوروه . لقد كاد يُجَنّ من شدة الفرح ، وخاف أن يكون حلماً ما رأى ، فأدار البيضة في يده ثم قبّلها ، وقال : «والآن كيف أطبخها؟ أأعملها "عجة" ...؟ لا ! إني أفضلها مقشورةً مسلوقةً في الماء المغلي لكنها قد تكون أحسن طعماً لو أني قليتها . تُرى أأضعها في الماء المغلي كما هي ؟ لا ! الأفضل أن أكسرها في الماء الغالي فتنضج في الحال » .

وسرعان ما فعل ذلك . لقد وضع المِقْلاة فوق كانون به فحمٌ متقد ، ووضع في المِقْلاة ماءً بدل الزيت . فلما غلى الماء ... طَكّ ! كسر البيضة وأمسكها فوق المقلاة .

وانتظر خروج صفارها وبياضها ، لكنه رأى بدلاً منهما كتكوتاً صغيراً يخرُج من البيضة طائراً ، ثم ينحني له انحناءةً مؤدّبة ، ويقول مسروراً :

ـ شكراً لك ألف شكر ، أيها العزيز بينوكيو ، لقد وفّرت عليّ مجهوداً أبذله في كسر القشرة ! إلى اللقاء إذن ، واعتنِ بنفسك ، وبلّغ سلامي إلى الأصحاب ! .

ثم فرّد الكتكوت جناحيه ، وخرج طائراً من النافذة المفتوحة ، وغاب عن الأنظار .

وبقي الأرجوز المسكين مدهوشاً : فعيناه ثابتتان لا تتحركان ، وفمه مفتوح ، ويداه تُمسكان قشرة البيضة . فلما أفاق قليلاً من الفزع الذي أصابه ، راح يبكي ويصرخ يائساً ، ويقول : « نعم ، كان الصرصور المتكلم حقاً ، لو لم أهرُب من البيت ، أو لو كان أبي هنا ، لما كنت الآن أموت من الجوع ، إن الجوع مرض مخيف ! »

واشتد جوعه فتذكر في أن يذهب إلى القرية ، يأمل أن يجد هناك شخصاً محسناً ، يُعطيه كسْرةً من الخبز .

٦

كانت الليلة شديدة البرد قارسة ، وكان الرّعد يدوّي والبرق يخطف الأبصار والهواء عاصفاً .

كان بينوكيو خائفاً من أصوات الرعد ومنظر البرق ، وكان جوعه مع ذلك أشدّ من خوفه . ففتح الباب وجرى إلى القرية بأسرع

ما يمكنه . فوصل إليها وقد تدلّى لسانه من فمه كأنّه لسان كلب من كلاب الصيد .

كان كل ما في القرية مظلماً ساكناً كأنها قرية الأموات . فالدكاكين مُقفلة ، والشوارع خالية . فدقّ بينوكيو باب واحد من البيوت دقّاً طويلاً ، وهو يقول لنفسه :

ـ لا شكّ أن بعضهم سيطلّ من الشباك !

وفعلاً أطلّ من الشباك رجلٌ عجوزٌ ، يلبس على رأسه « طاقية نوم » ، وصاح غاضباً :

ـ مَن أنت ، وماذا تُريد في مثل هذه الساعة ؟

ـ هل يسمح لي قلبك الطيّب بكسرة من الخبز ؟

فظنّ الرجل أن بينوكيو من أولئك الأطفال الأشرار ، الذين يتسلّون ليلاً بدقّ الأبواب ليعاكسوا الناس الطيّبين . فقال : « انتظر قليلاً ، فسأرجع إليك في الحال ! » .

ومرّ نصف دقيقة ، فُتح بعدها

الشباك ثانية" وقال الرجل : « قف تحت الشباك وارفع مآقيك ؟ »

ولما لم تكن لبينوكيو طاقية ، فقد وقف تحت الشباك ساكتاً . وإذا بماء ينزل على رأسه ، كأنه المطر يتدفق من السماء . . .

لقد صبّ الرجل عليه إبريقاً من الماء ، بلله من رأسه إلى أصابع قدميه .

وعاد إلى البيت كأنه الفأر الغريق ، يكاد يموت من التعب والجوع الشديد . ولم يكن بإمكانه الوقوف طويلا على قدميه ، فجلس ووضع قدميه المبتلتين الموحلتين على الكانون الدافئ ، وما لبث أن راح فى نوم عميق .

وأمسكت النار ، فى أثناء نومه ، بقدميه الخشبيتين فاحترقتا وصارتا رماداً .

لكن بينوكيو ظل نائماً يغط غطيطاً . فلما طلع الفجر أيقظه صوتٌ دقّ بالباب ، فتثاءب وفرك عينيه وصاح : « من هذا ؟ » .

قال صوت : « أنا ! »

وكان الصوت صوت جيبتو .

٧

كانت عينا بينوكيو المسكين ما تزالان نصف مُغمضتين ، فلم يلاحظ أن قدميه احترقتا وذهبتا . فلما سمع صوت أبيه ، قفز من كرسيه ليجرى إلى الباب . لكنه ، بعد أن ترنّح قليلاً ، وقع على الأرض ، محدثاً صوتاً كصوت كيس مملوء باللاعق الخشبية ، حين يقع من الطابق الخامس !!!

وصاح جيبتو قائلا : « افتح الباب ! » .

فأجاب الأريجوز وهو يُجهش بالبكاء ، ويتدحرج على الأرض :

« لا أقدر يا أبت ! »

— لماذا ؟

— لأن بعضهم أكل قدىّ !

— من الذى أكلهما ؟

فقال بينوكيو وقد رأى القطة تلعب ببعض نشارة الخشب : « القطة ! »

فصاح جيبتو مرة ثانية : « افتح الباب ، وإلا ضربتك بالسوط ذى الأذيال التسعة » .

— صدقنى يا أبت ، إنى لا أقدر على الوقوف . آه أنا المسكين

سأضطر ما بقي من حياتي إلى المشي على ركبتيّ !!! » .

وكان جيبيتو يحب أن يكلم من بعض حينه، فتسلق الحائط ودخل من الشباك .

كان غاضباً غضباً شديداً، لكنه لما رأى بينوكيو — أرجوزه العزيز — مستلقياً على الأرض بغير قدمين ذاب غضبه ورفعه بين ذراعيه وقبله، ثم جرت دموعه على خديه وقال :

— بينوكيو ، يا صغيري العزيز ، كيف احترقت قدماك وذهبتا ؟

— لا أعرف يا أبت . ولكن صدقني إذ قلت لك إنني كانت ليلة مفزعة ، لن أنساها طول حياتي . كان البرق خاطفاً والرعد شديداً ، والجوع يمزق بطني . ولقد قال لي الصرصور المتكلم : « إن هذا الفرس نافع لك ، لأنك شرير وتستحق ذلك ! » فقلت له : « حاذر ، أيها الصرصور ! » فقال : « إنك أرجوز ورأسك من خشب ! » . وحينئذ رميت عليه القدوم فمات . لكنه هو المخطئ ، لأنني لم أرد قتله . والدليل على ذلك أنني وضعت المقلاة على النار ، لكن الكنكوت طار وهو يقول : « إلى اللقاء ، وبلّغ سلامي إلى الأصحاب ! » . وكنت في كل لحظة أزداد جوعاً . وهذا هو السبب في أن الرجل العجوز ذا الطاقية فوق رأسه . أطلّ من الشباك وقال : « قف تحت الشباك وارفع طاقيتك ! » فلما وقفت الدلو على الماء كالسيل ، صبّه الرجل من الإبريق . وليس عاراً أن أطلب كسيرة من الخبز . أليس كذلك ؟ ثم إنني رجعت مسرعاً إلى البيت .

ولما كنت جوعان جوعاً شديداً ، وضعت قدميّ على الكانون لتشتعلا ، وجلست حتى أنت ، واحترقت قدماي ، وما زلت أشعر بالجوع الشديد ، ولم تعد لي قدمان ، يو ... هوّ ... هوّ .... هوّ ... ! »

وراح بينوكيو المسكين يبكي ، ويصرخ صراخاً عالياً ، يمكن أن يُسمع من بعيد .

ولم يفهم جيبيتو من كلّ هذا الخليط من الكلام والبكاء ، إلا أن « الأرجوز » يكاد يموت من شدة الجوع . فأخرج من جيبه ثلاث كمثريات ، وقدّمها له وقال :

— هذه الكمثريات الثلاث كانت لإفطاري ، لكني أعطيها لك بكل سرور !

— إذا أردت أن آكلها فاقشرها لي .

فدهش جيبيتو وقال : « أقشرها لك ؟ ! ما كنت لأصدق أنك « متحذلق » إلى هذا الحد ، إن هذا يا ولدي أمرٌ شديد الضرر . فالواجب أن تعوّد أنفسنا أن نأكل كلّ ما يوضع أمامنا ونحمد الله عليه ، لأن الإنسان لا يعرف أبداً ما قد يحدث . فإن هذه الدنيا عجيبة ! »

قال پينوكيو : « هذا كلام طيّب جداً ، لكنّي مع ذلك لن آكل أبداً فاكهة غير مقشورة . فأنا لا أحتمل القشر ! »

فلم يسعْ جپيتو الطيّب الصبور ، إلاّ أنْ يأخذ سكّينة فيقشر الكمّثريات الثلاث ، ثم يناولها لپينوكيو ويضع القشر في ركن المائدة .

ولما أكل پينوكيو من الكمّثرة الأولى ، هَمّ برمْي القلب والبذر . لكن جپيتو قال : « لا ترْمِه ، فقد تكون له فائدة ! »

فالتفت إليه پينوكيو غاضباً وقال : « وهل تتصور أنّي آكل القلب ؟! »

قال جپيتو هادئاً : « من يدري ؟! فهذه الدنيا عجيبة ! » ، ثم راح يجمع كل ما يرميه پينوكيو من قلوب الكمّثرى ويضعه مع القشر في ركن المائدة .

ولما فرغ پينوكيو من أكل الكمّثريات الثلاث استلقى وتمطّى وتثاءب ثم عاد « يزنّ » من جديد ويقول :

— ما زلتُ جوعان !

— لكن يا ولدي لم يبقَ عندي شيء أعطيك إياه .

— لا شيء ؟ لا شيء أبداً ؟

— لم يبقَ إلا هذا القشر وهذه القلوب .

— ما دام الأمرُ كذلك فلتأكلْ بعضَ هذا القشر .

وتناول قشرة ووضعها في فمه ، فظهر عليه الامتعاض ، ثم ما لبثت القشرة أن اختفت جميعها في فمه ، وتلتها الثانية ثم الثالثة ، ثم القلوب

واحداً بعد آخر . فلما انتهى من التهام كل شيء ، ربّتَ (طبطب) على بطنه وقال مسروراً : « آه ! أنا الآن أحسن ! » .

فقال جپيتو : « أرأيت أنّي كنت على حقّ لما قلت لك يجب أن لا تأكلَ نفسك ، فتصبح صعبَ الإرضاء في الأكل ؟ إن الإنسان يا ولدي لا يعرف ما قد يحدُث . فهذه الدنيا عجيبة ! » .

٨

لما شبع « الأرجوز » بدأ يتأفف ويبكي ويطلب قدمين جديدتين . لكن جپيتو أراد أن يعاقبه على « شقاوته » فتركه يبكي ويتأفف نصف النهار . وأخيراً قال له : « تقول إنّي يجب أن أعمل لك قدمين جديدتين ، لماذا ؟ ألأجل أن تهرُب مرّة ثانية ؟! » . فقال پينوكيو باكياً :

— أعدُك بأن أكون ولداً عاقلاً منذ اليوم .

— هذا كلام يقوله كلّ الأطفال عندما يطلبون شيئاً .

— أعدُك بأن أذهب إلى المدرسة لأتعلم ، فتكون فخوراً بي .

— كل الأطفال يقولون ذلك عندما يطلبون شيئاً .

— لكنّي لستُ ككل الأطفال ، إنّي أحسن من أيّ واحد منهم . إني دائماً صادق ، لا أكذب أبداً . وإني أعدك يا أبتِ أن

أتعلم صناعة لأساعدك عند ما تكبر ، وأسليك وأسعدك .

فانهالت عينا جيبتو بالدموع لما رأى پينوكيو فى تلك الحال المؤلمة .

ثم تناول أدواته وخشبتين صغيرتين وبدأ العمل فى الحال .

وفى أقل من نصف ساعة ، كانت القدمان جاهزتين ، قدمان صغيرتان خفيفتا الحركة ، لا يستطيع صنعهما إلا حفارتان .

قال جيبتو : « أغمض عينيك ونم ! » .

فأغمض پينوكيو عينيه ، وتظاهر بالنوم . فأزلق جيبتو القدمين مكانهما من پينوكيو .

ولما شعر الأرجوز أن قد أصبحت له قدمان جديدتان ، قفز من المائدة التى كان راقداً عليها ، وراح يرقص ويلعب ، ويقفز هنا وهناك فرحاً مسروراً . ثم قال : « والآن أريد أن أذهب حالا إلى المدرسة لكى أبرهن على شكرى لك يا أبتِ » .

قال أبوه : « أنت ولد طيب جداً » .

ـ لكننى إن ذهبت إلى المدرسة احتجتُ إلى ملابس .

كان جيبتو فقيراً لا يملك مليماً واحداً . فلم يستطع أن يصنع لپينوكيو إلا « بدلة » من الورق المنقوش ، وحذاءً من قشر الشجر ، وطاقية صنعها له من لباب الخبز .

وكان بالغرفة حوضٌ كبيرٌ مملوءٌ بالماء . فلما تمّ صُنع الثياب وليسها الأرجوز أسرع إلى الماء ليرى نفسه فيه . ثم قال :

ـ إننى أشبه عظماء الرجال .

ـ نعم ، بلاشك ! ولكن تذكر أن الملابس لا تصنع عظماء الرجال .

ـ وبما دمنا نتكلم عن المدرسة ، فما زال ينقصنى شىء ، شىء هامّ ، بل هو أهم شىء ...

ـ وهو ... ؟

ـ كتاب المطالعة .

— صحيح ، ولكن كيف نحصّل لك عليه .
— هذا سهل ! تشترى لى من المكتبة واحداً .
— والثمن ؟
— إنى لا أملك مليماً واحداً .
فقال الرجل الطيب محزوناً : « وأنا أيضاً لا أملك شيئاً ... »
وشعر بينوكيو بالحزن الشديد ، مع أنه كان فى العادة مرحاً طروباً . فالفقر حين يكون شديداً يفقى على الفرح ، حتى عند الأطفال .
لكن جيبيتو ما لبث أن قال : « مهلاً ! » . ثم قفز إلى معطفه القديم فأخذه وخرج من البيت مسرعاً .
ثم عاد بعد قليل ومعه كتاب المطالعة الأولية ، جاء به لابنه . لكن الرجل المسكين لم يعد عليه ما يستر جسمه إلا قميصه ، مع أن البرد كان شديداً والثلج يسقط كثيفاً !!!
— أين معطفك يا أبتِ ؟
— بعته
— ولماذا بعته ؟
— إنه كان يجعلنى « حرّان » .
ففهم بينوكيو فى الحال السبب الذى من أجله باع أبوه معطفه ، فشعر بالشكر يملأ قلبه ، وعدّ ذراعيه فلفّهما حول رقبة أبيه ، وراح يقبّله فى كل مكان من وجهه .

٩

أخذ بينوكيو كتابه الجميل الجديد ، ووضعه تحت إبطه وخرج من البيت ليلعب إلى المدرسة . وكان فى أثناء الطريق يرسم لنفسه الخطط الجميلة ، ويبنى فى الهواء ألف قصر وقصر ، ويحدّث نفسه قائلا :
« متى وصلتُ إلى المدرسة تعلمتُ فى الحال القراءة . أما غداً فسأتعلم الكتابة ، وبعد غد الحساب . وحينئذ أكونُ قد أصبحت ولداً متعلماً مهذباً أستطيع أن أربح فى الحال أكواماً من النقود . فأما القروش الأولى فسأشترى بها لأبى معطفاً جديداً . بل سأشترى به له من الذهب الخالص ، أما أزراره فستكون من الألماس ، فإنه يستحق منى ذلك تماماً ، لأنه فى هذا الشتاء القارس ، قد حرم نفسه معطفه ليشترى لى بثمنه كتاباً ! » .
وبينما كان بينوكيو فى طريقه إلى المدرسة يحدّث نفسه بهذا الحديث الجميل ، إذا به يسمع أصوات موسيقى تأتيه من بعيد « فى ... فى ... فى ... فى ... زُومْ ... زومْ ... زومْ ... زومْ ... ! » .
كانت الأصوات تجىء من نهاية شارع طويل يقطع الطريق المؤدى إلى المدرسة ، فى نهايته قرية صغيرة قريبة من البحر ، فقال : « ما تلك الموسيقى ؟ من اليوم أنى مضطر الآن للذهاب إلى المدرسة ، وإلا كنت ... ! » .

وتردّد قليلا ...

لكن الشرّير لم يلبث أن هزّ كتفيه وقال : « اليوم أستمعُ للمزامير ، وغداً أذهب للمدرسة . ما زال الوقت متّسعاً للذهاب إلى المدرسة » .

وسُرعان ما جرى إلى القرية القريبة من البحر بأسرع ما يمكنه .

ولم يلبث پينوكيو أن وجد نفسه في ميدانٍ صغير ، يتزاحم الناس فيه حولَ بناءٍ عالٍ من الخشب والقماش الملوّن .

وسأل پينوكيو ولداً من الواقفين : « ما هذا البناء ؟ » .

— اقرأ العنوان إنْ كنتَ تريد أن تعرف .

— كان بودّي أن أقرأه ، لكنني لا أعرف القراءة .

— هذا شيء جميل جداً ، أيها الأبله ، إذن أقرأه أنا لك . اعلمْ أن هذا الإعلان ذا الحروف الكبيرة الحمراء كالنار ، مكتوب فيه ما يأتي :

« مسرح الأرجوزات العظيم »

— وهل بدأ اللعب من زمن طويل ؟

— لا ، لم يبدأ إلا الآن .

— وما ثمن تذكرة الدخول ؟

— مليمان .

وكاد پينوكيو يجنّ ، فقال للولد من غير أن يخجل :

— هل تعطيني مليمين حتى غد ؟

فضحك الولد ساخراً منه وقال : « كان بودّي أن أفعل هذا ، ولكنني اليوم لا أقدر على ذلك ! » .

قال الأرجوز : « أبيعك سترتى بمليمين » .

— وماذا أصنع بسترة من الورق الملوّن ، إن أمطرت السماء ذابت السترة؟

— هل تشترى حذائى ؟

— ارْمِه فى النار !

— وماذا تعطينى من أجل قُبَّعتى ؟

— شىء جميل ! قبعة مصنوعة من لباب الخبز ! منى وضعها على رأسى أكلتها الفئران ! ! !

وكأنما صار پينوكيو واقفاً على أطراف إبرة ودبابيس . فلم يلبث أن قال : « هل تعطينى مليمين مقابل هذا الكتاب الجديد ؟ » .

فقال الولد — وكان أعقلَ من پينوكيو — : « أنا لا أشترى شيئاً من غيرى من الأولاد ! » .

وهنا سمع پينوكيو رجلا ممن يشترون الثياب القديمة — كان واقفاً بحوارهما يتسمّع حديثهما — سمعه يقول : « أنا أعطيك مليمين ثمناً لهذا الكتاب ! » .

وبيع الكتابُ فى الحال ، الكتابُ الذى اشتراه جيپتو المسكين لابنه بعد أن باع معطفه ، وبقى عارياً لا يستره إلا قميصه ، فى برد الشتاء الشديد ! ! !

لما دخل پينوكيو مسرح الأرجوزات ، أحدث دخوله ضجةً وهرَجاً . كان الستار قد رُفع ، وبدأ اللعب .

وكان على المسرح أرجوزان اسم أحدهما « هارْلكان » واسم الثانى « پُولْكِينِلّو » . وكانا يتعاركان كالمعتاد .

وكان الناس يشاهدون المنظر بانتباهٍ شديدٍ ، ويضحكون حتى يجعلهم جنونهم لمنظر الأرجوزين ، المتشاجرين .

وفجأةً توقّف « هارلكان » عن اللعب ، ونظرَ إلى الجمهور وأشار إلى آخر القاعة ، وصاح بطريقته المسرحية : « الله أكبر ! أصاحٍ أنا أم نائمٌ أحلم ؟ ؟ ؟ إنه بالتأكيد بينوكيو ، هذا الذى بآخر القاعة ، هناك فى الخلف ! » .

فصاح بُولْكينِلّو : « نعم ، إنه بينوكيو ، هو بعينه ! » .

ثم صاحت السيدة رُوزاوْرا : « نعم ، هو بينوكيو بعينه » .

ثم جرَوْا جميعاً والتفّوا من جوانب المسرح يضحكون ويصيحون :

— بينوكيو ! بينوكيو ! أخونا بينوكيو ! يعيش بينوكيو! .

وقال « هارلكان » صالحاً : « تعالَ يا بينوكيو ، اصعدْ هنا يا بينوكيو ، تعالَ وألقِ بنفسك فى أحضان أخيك الخشبى ! » .

فلما سمع بينوكيو هارلكان يدعوه هذه الدعوة الودّية ، قفزَ من آخر القاعة إلى المقاعد الأمامية ، ثم قفزَ قفزةً أخرى وضعت على رأس رئيس فرقة الموسيقى ، وبقفزة ثالثة كان على المسرح ، فراح الأرجوزات جميعاً يقبّلون بينوكيو ويحضنونه ويقرصونه ، ضاحكين صاحبين .

لقد كان المنظر مؤثراً جداً ، لكنّ المتفرجين لما رأوا اللعب قد توقّف ضاق صدرُهم ، وبدأوا يصيحون قائلين :

— « الرّواية ! الرواية ! استمرّوا فى الرواية ! » .

ومع كلّ صياحهم ، لم يظهر الأرجوزات على المسرح ، بل استمرّوا فى تقبيل صاحبهم بينوكيو والسّلام عليه ، وظلوا فى سرورهم وفرحهم ، حتى

حملوه آخر الأمر على أكتافهم ، وعادوا به إلى أضواء المسرح .

وفجأةً ظهرَ صاحب المسرح .

كان رجلا طويلا ، طويلا جداً ، عريضَ الكتفين ، قبيحَ المنظر ، يفزع الإنسان إذا نظر إليه ، له لحيةٌ كأنها لطخة الحبر الأسود ، أما فمه فواسع كأنه الفرن الكبير . وأما عيناه فكأنهما مصباحان أحمران . وكان بيده سوط (كرباج) طويلٌ مصنوع من أذيال الذئاب ، ملفوف بعضُها فوق بعض ! ! !

فلما ظهرَ بهذه الصورة المخيفة ، حبَسَ المتفرّجون أنفاسَهم ، حتى

لأمكن سماع صوت الدبوس إذا وقع على الأرض . وأصبح الأبجوزات جميعاً يترجفون من شدة الخوف .

وسأل الرجل پينوكيو فى صوت كأنه الرعد : « لماذا جئت هنا تنشر الفوضى فى مسرحى ؟ » .

— صدقنى يا صاحب السعادة ، إن الغلطة ليست غلطتى .

— احرس ، سوف نُصفّى الحساب الذى بيننا بعد قليل .

وانتهى اللعب وانصرف الجمهور . فذهب صاحب المسرح إلى المطبخ ، حيث كان قد وضع خروفاً يأكله على النار ، يجهزه لعشائه . فلما رأى أن الخشب الذى عنده لا يكفى لبقاء النار متوقدة حتى يتم شيّ الخروف ، صاح منادياً هارلكان وپولكينلو ، قال :

— أحضرا إلىّ ذلك « الأبجوز » ، تجدانه معلقاً بمسمار فى الحائط . إن خشبه جيد ناشف يصلح لإيقاد النار ، حتى يتم شيّ خروفى !

تردد هارلكان وپولكينلو قليلا ، لكن الرجل حدق فيهما مهدداً فأطاعا . ومرت لحظات رجعا بعدها إلى المطبخ يحملان پينوكيو المسكين الذى كان يتلوى ويتنفض كأنه السمكة خرجت من الماء ، ويصرخ باكياً ويقول : « لا ! لا ! اخشنى يا أبت ، أنقذنى يا أبى ، إنى لا أريد أن أموت ، لا أريد أن أموت ! » .

١١

كان « آكل النار » — وهو اسم صاحب المسرح — فى ظاهره رجلا مُخيفاً ، بلحيته السوداء الحالكة على صدره إلى قدميه . لكنه فى حقيقة الأمر كان طيب القلب . فإنه لما رأى پينوكيو المسكين يبكى ، ويصرخ قائلا : « لا أريد أن أموت ! لا أريد أن أموت ! » أخذته به الرحمة فعطس عطسة شديدة .

وكان هارلكان مغموماً حزيناً مثل « مالك الحزين » . لكنه لما سمع الرجل يعطس ، أشرق وجهه وبهل ، ومال على پينوكيو وقال : « أبشر يا أخى ، لقد عطس الرجل ! وهو إذا عطس ! كان ذلك علامة على أنه سالم خالك . وإذن ، فقد نجوت ! » .

ذلك بأن هذا الرجل العجيب « آكل النار » ، إذا تألم أو أحس بالحزن من أجل أحد ، عطس عطسة شديدة ، يذهب بها غضبه ويلين قلبه !

بعد أن عطس صاحب المسرح ، بقى يتكلم بصوت خشن أجش ويصرخ فى پينوكيو ويقول :

« كفى بكاء ! إن البكاء يعملى أحس فى معدتى بإحساس مزعج ... حتى إنى ... آتشو ! .... آتشو ! .... » لقد عطس الرجل هذه المرة عطستين .

قال بينوكيو : « يرحمكم الله ! » .

فقال آكل النار : « شكراً ! وأبوك وأمك ، هل يتعيشان ؟ » .

— أبي حيّ ، أما أمّي فلم أعرفها في حياتي .

إن أباك العجوز ليحزن جداً إذا رميتك في النار ! مسكين ذلك الرجل العجوز ! إني متألم له ألماً شديداً .... آتشو ! ... آتشو ! ... آتشو ! ... » ثلاث مرات ! قال بينوكيو : « يرحمكم الله ! » .

— شكراً ! على أنه هو أيضاً يجب أن يتألم لحالي ، فليس عندي من الحطب ما يكفي لإتمام شيّ عشائي . وأنت أنسب شيء عندي الآن لذلك الغرض ، أنسب شيء بالتأكيد ! لكني قد عفوت عنك ، ويجب أن أدبّر أمري ، فأضع أحد أرنبوزات فرقي في النار تحت الخروف بدلاً منك . يا شرطيّ !

فلم يلبث أن ظهر في الحال شرطيان خشبيان ، طويلان ، رفيعان ، يمسك كلٌّ منهما في يده سيفاً مسلولاً .

قال صاحب المسرح في صوت خشن أبحش : « خذ "هارلكان" واربطه برباط متين ثم ارمياه في النار ، فإن خروفي يجب أن يتم شيّه ! » .

تصوروا هالكان المسكين ! لقد أصابه خوفٌ شديدٌ ، فانكفأ على وجهه فزعاً !

ولما رأى بينوكيو هذا المنظر المؤلم ، رمى نفسه عند قدمي صاحب المسرح وبكى بكاءً شديداً جداً ، وقال متوسلاً : « ارحمه ، أيها السيد العظيم » .

قال الرجل بشدة : « لا سادة هنا » .

— ارحمه أيها الفارس الهمام .

— لا فرسان هنا .

— ارحمه أيها القائد العظيم .

— لا قوّاد هنا .

— ارحمه يا صاحب السعادة .

فلما سمع الرجل لقب « صاحب السعادة » زمّ شفتيه ، وتحرّك قلبه الطيب فجأة ، وقال :

— حسناً ، ماذا تريد أن أفعل ؟

— تعفو عن هارلكان ، أتوسّل إليك !

— إنك تطلب المستحيل . فإني إذ عفوت عنه ، فلا بدّ من أن أضعك أنت في النار ، لأن خروفي يجب أن يتم شيّه .

فقام بينوكيو واقفاً وأمسك طاقيته المصنوعة من لباب الخبز فرماها بعيداً وقال :

« إذن ، فأنا أعرف واجبي في هذه الحالة . إني ياشرطي ! اربطوني أيها السادة وارموني في النار ! فليس من العدل أن يموت من أجلي هارلكان صديقي المحبوب ! » .

قال بينوكيو هذه الكلمات بصوت عالٍ كصوت الأبطال ، حتى أبكى كلّ من كان حاضراً من الأرنبوزات ، وحتى الشرطيان بكيا كالأطفال ، مع أنهما كما نعرف كانا مصنوعين من الخشب !

أما « آكل النار » فقد بقي جامداً بارداً كقطعة الثلج . لكنه بعد ذلك بدأ يلوب قليلاً قليلاً ، ثم يعطس ! فلما عطس أربع مرات أو خمساً ، فتح ذراعيه في حنان لبينوكيو وقال :

« إنك ولد شجاع ، تعال إلي أقبلك ! » .

فجرى بينوكيو مسرعاً إلى « آكل النار » وشبق إليه كأنه القائر وقبل طرف أنفه الذي كان عالية مدببة .

أما « هارلكان » المسكين فكان واقفاً ما يزال يرجف . فلما رأى ذلك قال : « وحياتي ، هل أنقذت ؟ » .

قال آكل النار : « حياتك أنقذت » ، وسكت قليلا ثم قال : « يجب أن أرتب أمري على أكل حريق نيئاً قبل أن يتم شيء ! » .

ولما عرف الأرجوزات أن صاحبهم بينوكيو وأخاهم هارلكان قد بعد عنهما الخطر ، جروا جميعاً إلى المسرح فأضاءوا الأنوار كلها ، كأنهم يستعدون لحفلة ضخمة كبيرة ، ثم أخذوا يقفزون ويرقصون ويغنون . ويقبل بعضهم بعضاً . وبقوا على هذه الحال من الطرب والفرح والسرور ، حتى أشرقت الشمس في الصباح التالي .

١٢

ولما كان اليوم التالي ، نادى « آكل النار » بينوكيو وقال له :

— ما اسم أبيك ؟

— جيبتو .

— وما صناعته ؟

— صناعته رجل فقير !

— هل يربح كثيراً ؟

— إنه يربح ما يكفيه للمشي طول يومه ، دون أن يكون في جيبه مليم واحد . تصور ! إنه لأجل أن يشتري لي كتاب المطالعة قد باع معطفه ، وهو بغير معطف .

— مسكين ! إني متألم لحاله . خذ ! هاك خمسة جنيهات ذهبية . اذهب إليه مسرعاً وأعطه إياها ، وبلغه سلامي .

لقد شكر بينوكيو « آكل النار » معروفه ألف مرة ومرة ثم راح إلى جميع أرجوزات الفرقة يقبلهم الواحد بعد الآخر ، حتى الشرطيان احتضنهما كذلك وقبلهما . ثم انصرف إلى البيت يكاد يطير من شدة الفرح .

لكنه ما إن سار قليلاً حتى قابل ثعلباً يعرج وقطاً أعمى ، يمشيان معاً ، ويتكيء كل منهما على صاحبه بقدر ما يحتمل . فلما اقتربا من بينوكيو قال الثعلب في أدب كثير :

– صباح الخير يا بينوكيو !

– آه ! أنت تعرفُ اسمي ؟ كيف عرفتَه ؟

– بل إني أعرفُ أباك أيضاً معرفةً جيدة .

– وأين رأيتَه ؟

– رأيته بالأمس واقفاً بباب بيته .

– وماذا كان يعمل ؟

– كان لابساً قميصه ، وكان يرجفُ من شدّة البرد .

– مسكينٌ أبي ، لكنه بعمله لن يرجفُ بعدَ اليوم أبداً .

– ولماذا ؟

– لأنني أصبحتُ غنياً .

– أنت ؟ ! غنى ؟ !

وأخذ الثعلب يضحك باحتقار . وكذلك ضحك القطّ ، لكنه وضع كفّه على شاربيه لكي يُخفي ضحكه . فتضايق بينوكيو وصاح قائلاً :

– ليس في الأمر ما يُضحك . هذه – إذا كنتما تعرفان مثل هذه الأشياء – جنيهاتٌ ذهبية جميلة .

وأخرج من جيبه النقود الذهبية ، التي أعطاه إياها « آكل النار » . فلما سمع الثعلب رنينَ الجنيهات الذهبية الجميل ، تحرّكت قدمُه العرجاء

من غير أن يشعر ، وفتح القطّ عينيْه واسعتين ، لكنه ما لبث أن أغمضهما بسرعة ، قبل أن يلحظ بينوكيو ذلك .

وسأل الثعلب بينوكيو قال : «وما الذي تنوي أن تفعله بهذه الجنيهات ؟» .

قال الأبله : « إني أولاً وقبلَ كلّ شيء أنوي أن اشترِيَ لأبي معطفاً جديداً جميلاً ، معطفاً مصنوعاً من الذهب الخالص بأزرارٍ من الألماس . ثم أشترِي لنفسي كتاب مطالعةٍ جديد » .

– لنفسك ؟

– بالتأكيد ! فإني أنوي الذّهاب إلى المدرسة ، والاجتهاد في دروسي .

– انظُر إليّ أنا ! لقد كان حبي الشديد للدروس والمدرسة سبباً في أن فقدتُ كل فائدة من رجلي هذه !

وقال القط : « وانظر إليّ أنا . فإني بسبب حبي الشديد للدروس والمدرسة فقدتُ بصري وخسرتُ عينيّ ! » .

وفي هذه الأثناء كان عصفورٌ أسودُ جالساً على حافة سور من الزرع قائم على جانب الطريق ، وكان ينظر إليهم ويسمع لحديثهم . فلما انتهى القط من

صارته ، راح العصفور يغرّد كعادته ويقول : « يا پينوكيو ، يا پينوكيو ، لا تستمع لنصائح رُفقاء السوء ، وإلا ندمتَ ندماً شديداً ! » .

ألا ليتَ العصفور لم يقلْ ذلك ! فإنّ القط لما سمعه يقدّم لپينوكيو هذه النصيحة هجمَ عليه فى قفزة طويلة ، وبلعَه دفعةً واحدةً بريشه وعظمه ولحمه ! ثم مسّح فمه وشاربيه وأغمض عينيه ثانيةً ، وعاد أعمى من جديد ، كما كان فى أول الأمر ... !

قال پينوكيو : « مسكينٌ العصفورُ الأسود ، لماذا فعلتَ به هذا ؟ » .

قال القط : « لأعطيه درساً ، لكيلا يتدخّل بين النامر حين يتكلمون ! » .

وكانوا قد بلغوا فى مشيهم أكثرَ من نصف المسافة إلى بيت پينوكيو ، فوقف الثعلب فجأة ، والتفت لپينوكيو وقال :

— هل تُحبّ أن تضاعف جنيهاتك الذهبية ؟

— ما الذى تريد أن تقوله ؟

— هل تحبّ أن تجعل جنيهاتك الذهبية الخمسة الثانية هذه ، مائةً أو ألفاً أو ألفين ؟

— هل أحبّ ؟ ! ! طبعاً أحبّ ، ولكن كيف يمكن ذلك ؟

— ليس أسهلَ من ذلك فى الدنيا شىء ! إن كلّ الذى يجب أن تعمله هو أن تجىء معنا الآن بدلاً من أن ترجع إلى البيت .

— وأين تذهبان ؟

— إنّا ذاهبان إلى « بلاد الغفلة » .

ففكر پينوكيو لحظة ثم قال : « لا ، لا أريد أن أذهب . إنى الآن

قد بلغتُ البيت تقريباً ، وأريد أن أذهب لأرى أبى الذى لا شكّ ينتظر الآن رجوعى . أنا أعرفُ أنى كنت ولداً شريراً . إن العصفور المتكلم كان على حق عندما قال : إن الأطفال الذين لا يُطيعون أهليهم ، لن يَسعَدوا فى حياتهم أبداً . والآن فقط عرفت ذلك وتأكدت منه بعد أن دفعت الثمن غالياً ، فلقد قاسيتُ كثيراً من المتاعب ، حتى لقد كنتُ فى الليلة الماضية معرضاً لخطر شديد جداً فى بيت آكل النار » !

قال الثعلب : « وهو كذلك ! تريد الرجوع إلى البيت ، فليكن . ارجعْ إذن ! اذهبْ ! أسرعْ ! ولكن لا تلومنّ بعد ذلك إلا نفسك ! » .

وقال القط مكرراً : « لا تلومنّ إلا نفسك ! » .

— فكّرْ جيداً يا پينوكيو ، إنك تدبر ظهرك لثروة والثراء !

فقال القط : « للغنى والثراء ! » .

— إنّ جنيهاتك الذهبية الخمسة تصبح ألفين فى يومٍ واحدٍ فقط !

فقال القط : « يوم واحد فقط ! » .

وبقى پينوكيو ساكتاً لحظة ثم قال : « ولكن كيف يمكنُ أن تصبح هذه الكثرة ؟ » . ثم فتح فمه دهشةً .

قال الثعلب : « سوف أشرح لك الأمر فى الحال . إن هناك فى "بلاد الغفلة" تلك ، حيطاً سحرياً اسمه "حيط المعجزات" ، إن حفرت فيه حفرةً صغيرةً ، ووضعتَ فيها مثلاً جنيهاً ذهبياً ، ثم أهلت عليه التراب ورششتَ الماء فوقه رشّاً من الينبوع الموجود هناك ، مع قليلٍ من الملح ،

فاذهب إلى فراشك بعد ذلك وتم نوماً هنيئاً مطمئناً . فإن الليل إذا جاء عمّا الجنيه وازدهر . فإذا رُحتَ فى الصباح إلى الغيط ، فماذا ترى ؟ ترى شجرةً كبيرةً جميلةً كثيرةَ الفروع ، محملةً بالجنيهات الذهبية لا عددَ لها ، كأنها سنابل القمح بحبّاتها ! » .

قال بينوكيو : «فإذا أنا دفنت جنيهاتى الذهبية الخمسة فى ذلك الحقل ، فما عدد الجنيهات التى أجنيها فى الصباح ؟ » .

قال الثعلب : « مسألة بسيطة جداً ، ومشكلة حلها سَهْل ، بل إنى يمكننى أن أعدّ ذلك على أصابع يدىّ . اسمع ! افرض أن كلّ قطعة ذهبية تُصبح عنقوداً به خمسمائة قطعة ، ثم اضرب الخمسمائة فى خمسة . فما النتيجة ؟ ألفان وخمسمائة ! أليس كذلك ؟ إنك يا بينوكيو سوف تجد هناك فى الصباح ألفين وخمسمائة من جنيهاتك الذهبية الجديدة من جنيهاتك الخمسة الذاهبة هذه ، تَبْرُق بريقاً جذّاباً ، وترنّ رنيناً موسيقياً ساحراً !!! »

كاد عقل بينوكيو أن يطير من شدّة الفرح ، وأخذ يرقص طرباً ويقول : « عظيم جداً !!! إنى متى أحصد هذه الجنيهات الذهبية أعدّ كما منها خمسمائة وأحتفظ لنفسى بالألفين الباقية . فما قولكما دام فضلكما ؟ » .

فقال الثعلب باحتقار : « تهدينا خمسمائة ؟ !! وهل نفسنا تنتظر منك هديةً مقابل خدمتنا لك . إنك يا أخى نُبيتا ! سامحك الله ! » .

قال القط : « سامحك الله ! » .

ففى بينوكيو بفكر لحظة ثم قال : « ما أطيب قلبيكما ! » .

ونسى أباه ومعطفه الجديد وكتاب المطالعة ، وكلّ ما كان يتوى عمله من الأفعال الصالحة الجميلة ، وقال لصاحبيه الجديدين ، الثعلب والقط : « وهو كذلك ! دُلانى على الطريق ، فإنى ذاهبٌ معكما ! » .

١٣

وبقى الثلاثة سائرين ، سائرين ، سائرين ، حتى وصلوا قريبَ المساء — وبعد أن كادوا يموتون من شدّة التعب — إلى فندق « أبى جلمبو الأحمر » .

قال الثعلب : « الأفضل أن نقف قليلا وندخل الفندق لنستريح بضعَ ساعات . إن فيه على الأقل شيئاً نأكله ، ثم نعود عند

منتصف الليل فبدأ مشيا من جديد ، كي يتمكن من الوصول إلى " غيط المعجزات " عند شروق الشمس » .

ودخلوا الفندق ، وجلسوا إلى مائدة . ولكن لم تكن لأحد منهم شهوة مفتوحة .

فالقط كان يتملكه يُوجعه جداً ، فلم يأكل إلا خمسة وثلاثين سمكة مطبوخة ، بصلصة ، الطعام لم ، وأربعة أطباق من الكرش ، فوقها كثير من مسحوق الجبنة الرومي . لكنه لما وجد أن الكرش غير متقن الصنع طلب ثلاث مرات زبداً وجبناً مفروماً .

أما الثعلب ، وكان في العادة يأكل كل شيء ، فإنه ، المسكين ! ، ـ لما كان الطبيب قد أمره بالاقتصاد في الأكل ـ قد اكتفى بأرنب كبير

في « الصلصة » يحيط به عدد من قراع الربيع السمينة ، ثم طلب بعد هذا الصحن ـ لكي يفتح شهيته ـ طبقاً من الديك الرومي والبلبول والضفادع والسحالي وعنب الجنة . فلما فرغ من أكلها جميعاً ، رفض أن يأكل بعد ذلك شيئاً ...

وأما بينوكيو فكان الوحيد الذي أكل . لقد طلب ربع أوزة وقطعة صغيرة جداً من الخبز ، ثم ترك هذا كله في الصحن لم يقربه ! لقد كانت أفكاره كلها محصورة في غيط المعجزات ! وكان يشكو تخمة متجهة من كثرة الجنيهات الذهبية المنتظرة !

ولما فرغوا من تناول عشائهم ، قال الثعلب لصاحب الفندق :

ـ أعطنا غرفتين جميلتين من غرف النوم ، واحدة للسيد بينوكيو ، والأخرى لي ولصاحبي . إننا سنام قيلولة صغيرة ، فلا تنس أن توقظنا عند منتصف الليل تماماً ، لنتم رحلتنا .

قال الرجل : « حسناً يا سيدي ! » ثم غمز بعينه للثعلب والقط ، وكأنه يقول : « أنا فاهم ما تعملان » .

وما إن دخل بينوكيو فراشه حتى نام نوماً عميقاً ، وراح يحلم

أحلاماً لذيذة : من ذلك أنه فى وسط غيط كبير ملآن بالأشجار ، فروعُها محملةٌ بالجنيهات الذهبية الجميلة ، تتهايل فى لطف مع النسيم العليل ، وترنّ رنيناً بديعاً وكأنها تقول : « كلّ من أراد فليحضُرْ إلينا وليأخذ ما يشاء ! » . لكنه فى اللحظة الهامة جداً ، أعنى حين مدّ يده ليجمع من الجنيهات الذهبية ما يُريد ، أيقظتْه من الحلم الذيذ ثلاث دقّات شديدة على باب غرفته .

إنه صاحب الفندق جاء ليوقظه فى مُنتصف الليل كما طلب منه .

قال پينوكيو : « وأين صاحباى ؟ هل أيقظتَهما ، وهل استعدّا ؟ » .

— استعدّا ؟ ! لقد رحلا من ساعتين !

— من ساعتين ؟ ! ! وما سبب عَجلتهما ؟

— لقد وصلت إلى القط رسالةٌ بأن أخاه الأكبر الذى كان يشكو « القشف » مريضٌ ولا يُنتظرُ أن يعيش .

— وهل دفعا ثمنَ العشاء ؟

— ماذا تقول ؟ ! ! وهل يُسكن أن يدفعا ثمنَ العشاء وأنت يا سيدى موجود؟ إنّ أدبهما يمنعهما أن يوجّها مثل تلك الإهانة إلى سيّد كريم مثلك .

— شىءٌ يؤسف له كثيراً ، إن مثل هذه الإهانة أرحّب أنا بها كلّ الترحيب ، هى تسرّنى كثيراً !

وحكّ پينوكيو رأسه قرةً ثم قال :

— ألم يترك لك الصديقان الطيّبان شيئاً عن المكان الذى سيستطرانى فيه ؟

— نعم . إنهما بانتظارك فى « غيط المعجزات » غداً عند شروق الشمس .

فدفع پينوكيو ثمنَ عشائه وعشاء زميليه جنيهاً ذهبياً ، ثم تركَ الفندق ورحلَ .

لقد كان مُضطراً أن يتحسّس طريقه ، فقد كان الظلام حالكاً حتى ليستحيل على الإنسان أن يرى يدَه ، ولو وضعها أمامَ وجهه ! وكلّ ما أمكنه سماعُه فى هذا الريف هو السكوت الكامل التام ، حتى أوراق الشجر لم يكن يُسمع اهتزازها مع الريح ! اللهم إلا بضعة من الطيور ، كانت تُرفرف بجناحيها طائرة من شجرة فى جانب الطريق إلى شجرة فى الجانب الآخر ، فتلمس بجناحيها أنف پينوكيو فتردّه إلى الوراء خوفاً وذعراً فيصيح قائلا : « من ذا الذى يمشى هناك ؟ » .

ورأى أثناء مشيه شيئاً صغيراً فوق جذع شجرة يبرق بنور أصفرَ مثل ، كأنه مصباحٌ ليلٌ زجاجته من الصينى لا من الزجاج .

قال پينوكيو : « من أنت ؟ » .

فجاءه الرد فى صوت خافت واطئ ، كأنه يجىء من دنيا غير هذه الدنيا ، قال : « أنا شبح الصرصور المتكلم » .

— وماذا تريد منى ؟

— أريد أن أوجّه إليك نصيحتي . اربحْ إلى البيت حالاً ، واحمل الجنيهات الذهبيّة الباقية إلى أبيك المسكين ، الذي يبكي من أجلك بكاءً مرًّا .

إن أبي سوف يُصبح سيداً غنيًّا غداً في الصباح ، لأنّ هذه الجنيهات الذهبيّة الأربعة سوف تصبح ألفين .

— يا بنيّ لا تأمن أبداً بتعهُّدات الغنى يوماً . إنهم قومٌ نصّابون استمع لي يا ولدي ، وارجع إلى البيت .

— لا ! سأسير في طريقي هذا .

— إن الوقت متأخرٌ .

— سأسير في طريقي .

— والليلة كما ترى ظلماء .

— سأمشي في طريقي .

— والطريق خطرة ....

— إني سائرٌ في طريقي .

— تذكر أنّ الأطفال الذين يتعمّدون ما يشتهون ، يندمون اليوم أو غداً .

— هذه حكاية قديمة ! سعدتُ ليلتك ، أيها الصرصور !

— سعدتْ ليلتك يا پينوكيو ، وليحفظك الله من القتلة ومن الضباب !

وما ليث النورُ الأصفر الباهت أن انطفأ ، كما ينطفئ نور الشمعة الخائفة ، واحتفى الصرصور المتكلم . واشتد الطريق ظلاماً على ظلام .

١٤

كان پينوكيو يُحدّث نفسه في أثناء رحلته إلى غيط المعجزات : «ما أتعسنا نحن الأطفال ! مساكين ! كلُّ إنسان يؤذينا ويحذّرنا وينصحنا ! إنك إن سمعتهم يكلمونك حسبتهم جميعاً آباءنا أو مدرّسينا — كلُّ واحد منهم ! حتى الصراصير المتكلمة ! والفكرة في ذلك ؟! إنّ مجرّد عدم استماعي لنصائح هذا الصرصور المتكلم المزعج سيكون سبباً — من يدري ، كما يقول — في نزول المصائب بي ، فأنا سألاقي القتلة ! لكنني من حُسن حظّي لا أعتقد ، ولن أعتقد أبداً ، بوجود القتلة ! إن القتلة شيء اخترعه آباؤنا ليُخيفونا به ، حتى لا نخرج وحدنا بالليل . بل افرض أنني قابلتهم ، فهل تظنني أخاف منهم ؟ لا ، أبداً ! إنني ، على العكس ، سأتقدم إليهم وأقول : «يا حضرات القتلة ، ماذا تريدون مني ؟ لا تنسوا أنني لا أحبّ المزاح ، فأهدأوا واصرفوا إذن لحال سبيلكم ! » ولاشك أن القتلة المساكين ، إذا سمعوني أكلمهم بهذه الشدّة ، فإنهم سيهربون . إنني أتصورهم الآن يسابقون الريحَ فراراً مني ! فإن وقفوا لي ولم يهربوا ، فسأهرب أنا ، وبهذا ينتهي كل شيء » ! .

ومع أنّ پينوكيو كان يريد أن يستمر في حديثه هذا مع نفسه ، فقد سكت فجأةً ، ذلك بأنه سمع حفيفَ أوراق الشجر وراءه عالياً .

والتفت وراءه بسرعة ، فرأى « شكلين » مرعبين أسودين ملتفين في كيسين من أكياس الفحم ، يمشيان نحوه قفزاً على أصابع أقدامهما ، كأنهما شبحان ! فقال لنفسه : « إنهم اللصة ، بغير أدنى شك ! » .

وتذكر جبهاته الذهبية ، فلما لم يجد مكاناً يخبئها فيه ، وضعها في فمه تحت لسانه .

وأراد أن يجري . لكنه ما لبث أن أحس يداً تمسك ذراعه ، ثم سمع صوتين عميقين يقولان له : « نقودك أو حياتك ! » .

كان بينوكيو عاجزاً عن الكلام ، لأن نقوده كانت في فمه . فانحنى للشحين ألف مرة ومرة ، وأشار إليهما ألف إشارة ، لكي يثبت للصين المقنعين — اللذين لم يكن بإمكانه أن يرى منهما غير أعينهما من خروق الكيسين — أنه مسكين لا يملك مليماً واحداً .

قال القصان مهدئين : « خل عنك هذه المخاوات الفاشلة وسلم نقودك » .

لكن بينوكيو استمر يشير لهما ويحرك يديه وذراعيه ورأسه كأنما

يقول : « لا أملك مليماً واحداً » .

قال أطول اللصين قامة : « سلم نقودك وإلا فأنت ميت ! » .

قال الآخر : « أنت ميت ! »

— وبعد أن تقتلك نقتل أباك كذلك .

— أباك كذلك !

فصاح بينوكيو يائساً : « لا ، لا ، لا ، لا تقتلوا أبي المسكين إلا ! » .

وحينئذ سمع اللصان رنين الذهب في فمه ، فقال اللص الطويل القامة :

— آه ، أيها اللعين ، إنك تخبئ نقودك تحت لسانك ! ؟ أمرجئها حالا ! » .

فلم يهتم بينوكيو لهما ، وبقي ساكتاً ، فقال اللص :

— آه ، أنت لا تفهم ما أقول ؟ انتظر لحظة ، فسنعلمك كيف تخرجها في الحال !

ثم إنه أمسك بينوكيو من طرف أنفه الطويل ، وأمسكه اللص الثاني من ذقنه ، وراحا يشدانه بغير رحمة ، الأول في اتجاه ، والثاني في اتجاه آخر ، لكي يرغماه على فتح فمه . ولكنهما لم يقدرا . فإن فم بينوكيو كان مقفلا إقفالاً محكماً ، كأنما كان مسمراً و « مبرشماً » .

وحينئذ أخرج اللص القصير القامة من جيبه سكيناً ، حاول أن يفتح بها فم بينوكيو ويساعد ما بين شفتيه ، لكن بينوكيو كان أسرع من البرق ، فعض يد اللص عضة شديدة قطعها . وتصوروا يا أصدقائي

دهشته حين نظر إلى اليد المقطوعة فوجدها مخلّب قط!

وشجّعه هذا النصرُ الأول الذى فاز به ، فما زال بنفسه حتى خلّص من قبضات اللصّين . ثم قفز فوق الجدار الذى كان بجانبه ، وهرب محترقاً الغيطان ، ومن ورائه اللصان . وكان اللصّ القصير القامة ، الذى فقدَ مخلبه ، يجرى برجل واحدة ! وهو — كما ترون — أمرٌ عجيبٌ !

وظلّ الثلاثة يجرُون حتى تعب پينوكيو وأنهكه التّعب. فلما رأى أنه ضائعٌ تسلّق شجرةً من أشجار الصنوبر العالية ، وجلس فى رأسها فوق أحد الفروع . وحاول اللصّان تسلّق الشجرة وراءه ، لكنهما لما وصلا إلى منتصف الجذع ، انزلقا ووقعا على الأرض ، بعد أن تسلّخت أيديهما وأرجلهما .

ومع ذلك فلم ييأسا ولم ينصرفا ، بل جمعا كومةً من الحطب عند سفح الشجرة ، ثم أشعلا فيه ناراً . ولم تلبث النار أن أمسكت بالشجرة كلها فاشتعلت ، وصارت كأنها الشمعة فى الهواء فلما رأى پينوكيو اللهب يرتفع إليه بسرعة ، ويكاد أن يبلغه ، ولا لم يكن فى نيته أن ينشوى كأنه حمامة أعدّت للعشاء ، فقد قفز من قمة الشجرة إلى الأرض ، وأطلق ساقيه للريح وسط الغيطان وزارع العنب ، ومن ورائه اللصان يتابعانه ، وكأنهما لم يشعرا بالتعب .

وأوشك الفجر أن يطلع ، وما زال الثلاثة يجرُون . ورأى پينوكيو فجأةً الطريق أمامه مسدودةً بمترعة حفرةً واسعةً عميقةً ، يملؤها ماءٌ قذر .

فصاح قائلاً : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ! » ثم انطلق إلى الأمام كأنه الريح المندفعة ، وقفز قفزة طويلة بديعةً من فوق الماء . وقفز اللصان وراءه ، لكنهما لم يُحسنا تقدير المسافة ، فوقعا فى وسط الماء تماماً !

وسمع پينوكيو وراءه صوتَ وقوعهما فى الماء ، فاستمرّ يجرى ويضحك ويقول لهما : « نعماً أيّها اللصان العزيزان ! » .

وحسب أنهما غرقا . فلما التفت ليراهما يغرقان ، وجدهما يجريان وراءه ، ملتصقين فى كيسى الفحم ، يتساقط الماء منهما كما يتساقط من سلّة مخروقة .

١٥

شعر پينوكيو أن لا أملَ له فى النجاة هذه المرة . وكان على تمام الاستعداد لأن يرمى نفسه على الأرض ويستسلم ، لو لم تقع عيناه فجأةً على بيت صغير جميل ، أبيض كالثلج ، قائم أمامه على بُعْد بين الأشجار الخضراء المتشابكة .

قال لنفسه : « لو بقى فى من الأنفاس ما يكفينى للوصول إلى ذلك البيت لنجوت ! » .

وزاد من سرعته واللصان يلاحقانه .

وبعد جرْى يائس ، دام ساعتين تقريباً ، وصل المسكين أخيراً إلى

باب البيت الصغير ، وقد أنهكه التعبُ الشديدُ .

ودقَّ الباب . لكنْ لم يُجبه أحد .

ودقه مرة ثانية دقًّا عاليًا ، لتسمع وراءه وقعَ خطوات اللصين وأنفاسهما المتعبة . ولكن كل شيء في البيت ظلَّ ساكتاً كما كان .

فلما رأى أن الدقَّ لم يُفِدْه شيئاً ، بدأ يرفس الباب بقدمه هذه مرة ، وبقدمه الأخرى مرة ثانية . وعندئذ أطلَّت من الشباك طفلةٌ لطيفةٌ جميلةٌ ، شعرُها أزرقُ ووجهها أبيضُ كالشمع ، وقد أغمضتْ عينيها ووضعت على صدرها يديها ، وقالت ، من غير أن تحرك شفتيها ، بصوتٍ خافتٍ واهٍ كأنه يجيء من عالمٍ آخر :

— ليس في هذا البيت أحدٌ ، إنهم جميعاً قد ماتوا .

فصاح پينوكيو باكياً متوسلاً قال :

— ولكن متسمحين لي على الأقل بالدخول !

— وأنا أيضاً ميتة !

— ميتة ؟ ! إذن ما الذي تفعلينه بالشباك ؟

— أنتظرُ مجيء عربة الموتى لتحملني .

وما إن فرغت الطفلة الجميلة من كلامها حتى اختفت ، وانقفل الشباك في هدوء .

فصاح پينوكيو متوسلا ، وقال : « أيتها الطفلة الجميلة ذات الشعر الأزرق الجميل ، افتحي لي الباب بالله عليك ! ارحمي ولداً مسكيناً يجري وراءه قاتلا ..... ! » .

لكنه قبل أن يتمَّ كلمته ، شعر بمن يمسكه من رقبته ، وسمع الصوتين الغاضبين يقولان : « لن تهرُب منا هذه المرة ! » .

فشعر أن نهايته قريبة ، وبدأ يرجُف خوفاً ، ويهتزُّ فزَعاً ، حتى كثت تسمع « طقطقة » مفاصل رجليه الخشبيتين ، ورنين الخشبات الذهبية في فمه .

قال اللصان : « والآن ، أتفتح فمك أم لا تريد أن تفتحه ؟ إنك لا تُجيب ، حسنٌ جداً ، إذن فاترك الأمر لنا ، إننا سنفتحه لك هذه المرة ، أردت أم لم تُرِدْ ! » .

وأخرجا من جيبهما سكينين طويلتين ، حادتين كأنهما الموسى ، وحطاه بهما بوحشيةٍ فظيعة .

لكن پينوكيو كما تعرفون يا أعزائي الأطفال كان حسن الحظ مصنوعاً من أشف أنواع الخشب وأشده صلابةً ، فتكسرت السكينان على جسمه . وأصبحا ألفَ قطعة وقطعة ، ولم يبقَ منهما بيد اللصين القالين غيرُ مقبضيهما ، من غير أن يصيبه أيُّ أذًى . .

وقف اللصان القاتلان أمامه يُحملقان فيه مدهوشين ، وينظر أحدهما إلى الآخر متعجباً !

قال أحدهما : « يجب أن يُشنَق ، يجب أن يُشنَق ! » .

فقال الآخر : « أن يُشنق ! » .

ثم أمسكاه وربطا يديه وراء ظهره ، ووضعا حول رقبته حلقةً من الحبل المتين ، وعلقاه فى فرع شجرة باوطٍ كبيرة .

ثم جلسا بجواره على العُشب الأخضر ينظران إليه ، وينتظران أن يتوقف عن تحريك يديه وقدميه فى الهواء . لكنهما بعد ثلاث ساعات ، نظرا إليه فوجدا عينيه مفتوحتين واسعتين ، وأنه لا يزال يحرك يديه ورجليه تحريكاً يدلّ على القوة والعافية ! ! !

فلما تعبا من طول الانتظار ، التفتا إليه وقالا مستهزئين : « إلى اللقاء غداً إن شاء الله ، سنجيء إليك فى الصباح ، ونرجو أن يكون فكرك حينئذ قد هداك إلى أن الأفضل لك ولنا أن تموت ، بعد أن تترك لنا فمك مفتوحاً على مصراعيه . إلى اللقاء يا پينوكيو العزيز ! » .

وانصرفا .

وبدأت ريح الشمال تهب باردةً قارسةً ، وتصفّر شديدة ، فتطوح پينوكيو المسكين إلى الأمام وإلى الوراء كأنه مِدقّ الجرس . وشدّت حلقة الحبل على عنقه شداً ، حتى كادت أنفاسه أن تنقطع . وأخذت عيناه تُطفئان قليلاً قليلاً .

لكنه مع كل هذا ، كان يأمل أن تُنقِذه فى آخر لحظة نفسٌ كريمة وبقى ينتظر ، وينتظر ، وينتظر ، من غير أن يأتيه أحدٌ على الإطلاق وحينئذ تذكر أباه المسكين ، وقَمْم ، وهو على وشك الموت ، قال :

« آه يا أبى ، لو كنتَ هنا ! » .

ولم يُمكنه أن يزيدَ على ذلك حرفاً واحداً . فأقفلَ عينيه ومدَّ رجليه ، وأخذ جسمُه كله يرجُف ! ويبِّس حتى صار كقطعة الرُّخام الصَّلبة الباردة .

١٦

بينما كان پينوكيو المسكين — بعد أن تركه القاتلان مُعلقاً فى شجرة البلوط الكبيرة — أقربَ إلى الموت منه إلى الحياة ، أطلت الطفلة الجميلة ذات الشعر الأزرق من الشباك مرة ثانية . فلما رأته فى تلك الحال ، شعرت بالألم لبؤسه أصاب « الأرجوز » النمس ، الذى كان يترنح على النغمة التى تُعزفها رياح الشمال الباردة الشديدة ، فصفقت بيدها ثلاث مرات تصفيقاً خفيفاً .

وعندئذ سُمع صوتٌ كأنه حفيف أجنحة تُسرع ، وظهر فى الحال صقرٌ كبيرٌ ، حطَّ على حافة الشباك ، وقال :

« أمرك أيتها الإنسيّة الجميلة ؟ » ثم خفض منقاره احتراماً وإجلالاً (لأنكم يا قرائى الأعزاء ، يجب أن تعرفوا أن الطفلة الجميلة ، ذات الشعر

الأزرق ، لم تكن إلا إنسيّةً رقيقة ، عاشت فى تلك الجهة المُجاورة للغابة أكثر من ألف سنة وسنة) .

— هل ترى ذلك الأرجوز المعلق هناك فى شجرة البلوط الكبيرة ؟

— نعم أراه .

— اذهبْ إليه فى الحال ، واقطع بمنقارك القويّ عقدة الرباط الذى يمسكه ، ثم ضَعْه برفق وحنان على الأرض بجوار الشجرة .

فطار الصقر ثم رجع بعد دقيقتين يقول :

— نفَّذْتُ أمرك ، أيتها الإنسية الجميلة !

— وكيف وجدتَه ، حيًّا أم ميتًا ؟

— عند النَّظر إليه يحسبه الإنسان ميتاً ، لكنه فى الحقيقة لا يمكن أن يكون قد مات تماماً . لأنى عندما فككتُ عُقدة الرباط ، تنفَّس وتَمْتَم قائلا : « الحمد لله ، الآن أشعر أنى أحسن ! » .

فصفقت الإنسية بيديها الصغيرتين مرتين ، فظهر فى الحال كلب ضخم جميل ، يمشى واقفاً على قدميه الخلفيتين ، كأنه رَجُل ، ويلبس ثوباً من الثياب المُزركشة التى يلبسها الخدَمُ فى الحفلات ،

وعلى رأسه قبعة عالية ذات أركان ثلاثة ، لها حافة ذهبية ، وتحت القبعة شعر مستعار أبيض كالقطن ، أما سُتْرته فكانت بلون « الشكولاته » . وأما أزرارها فمن الألماس ، وله جيبان واسعان ، يحمل فيهما كلَّ ما أعطته إياه سيدته الجميلة من عظم لعشائه ، وكان سرواله (بنطلونه) القصير من القطيفة الحمراء الثمينة ، وأما جوربه فمن الحرير ، وأما حذاؤه فمن الجلد اللامع الجميل . وكان له وراء ظهره ما يشبه المظلة مصنوعة من الحرير الأزرق ، يُخبِّئ فيها ذيله كلما أمطرت السماء .

قالت الإنسية : « أسرع يا ميدورو ! أخرج في الحال لجمل عربتي ، وروِّح إلى الغابة تجدْ عند شجرة البلوط أرجوزاً مسكيناً نصف ميت ، نائماً على الأرض . ضعْهُ برفق في العربة فوق المقدَّمات ، وأحضِرْهُ إليَّ حالا . أفاهم أنت ؟ » .

فهزَّ الكلب الكبير الخريري الأزرق الذي وراءه ثلاث مرات أو أربع ، دلالة على أنه فهم ما تقول ، ثم راح يجري مُنْطلقاً كالرصاصة .

ولم تَمْضِ على ذلك لحظات قليلة حتى كانت قد خرجت من الإصطبل عربة فخمة ، لونها شفاف كالماء ، مفروشة بأفخر أنواع ريش عصفور الكنار ، أما بطانتها فمن القشدة المضروبة والمهلبية مع الكمك الحلو . وكان يجرها من القمران البيض رمانة زوج وزوج ، في حين كان الكلب الضخم جالساً فوق صندوق الحوذي يضرب سوطه في الهواء فوق رؤوس القمران ، فيُحْدِثُ بصوتاً عالياً مدوِّياً ، وكأنه حوذي حقيق .

في أقل من ربع ساعة وصلت العربة ثانية تحمل « الأرجوز » . وكانت الإنسية تنتظر بالباب رُجوعَها ، فلما رأتها أسرعتْ إليها وفتحت بابها ، وحملت « الأرجوز » فوق ذراعيها إلى غرفة صغيرة ، حيطانها من الصدف . ثم أرسلت تدعو في الحال ثلاثة من كبار الأطباء وأشهرهم .

وجاء الأطباء مُسْرعين : غرابٌ وبومة وصرصورٌ مُتَكلِّم ! ! !

ووقف الأطباءُ الثلاثة بجوار سرير « الأرجوز » ، فقالت الإنسيةُ الجميلة : « أريد ، أيها السادة ، أن تقولوا لي ألا يزال الأرجوز حياً ، أم أنه مات » .

واقترب الغراب من سرير المريض ، وجس نبضه ، ثم أنفه ، ثم خيشوم قدمه . ثم قال في صوتٍ رهيب : « رأيي أن هذا الأرجوز قد

مات وانتهى . فإن لم يكن — لسوء الحظ — قد مات ، كان ذلك دليلا مؤكداً على أنه لا يزال حيًّا ! » .

واقتربت اليومة من سرير المريض وقالت : « أنا آسفة يا سيدى الغراب . فرأيى فى هذه الحالة غير رأيك ، مع كل ما لك عندى من الاحترام والتقدير ، فأنت زميل عظيم ، وصديق عزيز . لكننى مع ذلك أرى أن الأرجوز لا يزال حيًّا . فإن لم يكن — لسوء الحظ — حيًّا ، كان ذلك دليلا مؤكداً على أنه قد مات وانتهى ! » .

فالتفتت الإنسيّة إلى الصرصور المتكلم وقالت : « وأنت يا سيدى ، أليس عندك ما تقوله ؟ » .

قال الصرصور : « أعتقد أن الطبيب العاقل يُفضّل أن يسكت إذا لم يجد شيئاً يقوله . على أن ملامح هذا الأرجوز ليست جديدة بالنسبة إلىّ ، لقد رأيته من قبل . نعم رأيته من قبل ! » .

وكان پينوكيو قد بقى إلى تلك اللحظة مُتَيبِّساً كأنه قطعة خشب حقيقية لا حياة بها . لكنه فى هذه اللحظة انتفض انتفاضة شديدة ، هزّت السرير كله . .

وقال الصرصور متمتماً كلامه : « هذا الأرجوز " نصّاب " بارع وعتال ماهر . . . »

وفتح پينوكيو عينيه ، لكنه ما لبث أن أغمضهما فى الحال !

« . . . إنه عتال ، مُراوغ ، فاسد ، متشرّد ، شرّير . . . ! » ، فأخفى پينوكيو وجهه تحت الملاءة .

« . . . وهو ابن عاق غير مطيع ، سيكون سبباً موت أبيه المسكين حسرةً وألماً ! » .

حينئذ سمع الحاضرون صوتاً بكاء خافتاً وعويلا مكتوماً . ولكم أن تتصوروا دهشتهم حين رفعوا الملاءة فرأوا أن پينوكيو هو الذى يبكى هذا البكاء !

قال الغراب فى صوت رهيب : « إن الولد الفاسد حين يبكى فهذا معناه أنه سيصبح ولداً صالحاً » .

وقالت اليومة : « أنا آسفة يا سيدى الغراب ، فرأيى فى هذه الحالة غير رأيك ، مع كل ما لك عندى من الاحترام والتقدير ، فأنت زميل عظيم ، وصديق عزيز ، لكننى مع كل ذلك أرى أن البكاء فى مثل هذه الحالة دليل على أن الأرجوز لا يريد أن يموت » .

١٧

لما انصرف الأطباء من الغرفة ، جاءت الإنسيّة إلى سرير پينوكيو ، ووضعت يدها على جبهته ، فرأته مصاباً بحمّى حارقة !

فأذابت مسحوقاً أبيض فى نصف كوب من الماء ، وأدنت الكوب من شفتيه قائلة فى حنان :

— اشربْ هذا ، فتشفى فى أيام ، وتعود اليك صحتك .

نظر بينوكيو إلى الكوب ، وزمّ شفتيه . وقال متثاوهاً :

— أحلوٌ هو أم مرّ ؟

— مُرّ ، لكنه مفيد ، وسوف يشفيك .

— إنْ كان مُرّاً فلا أريده .

— لكنه سيشفيك . استمع لنصيحتى واشربه .

— لكنى لا أحب المرّ .

— اشربْهُ أعطيك قطعة من السكر تُغيّر طعم فمك .

— وأين قطعة السكر ؟

فتناولت الإنسية قطعة من السكر وقالت : « ها هى ذى ! » .

— أريد قطعة السكر أولاً ، ثم أشرب هذا الماء المرّ .

— هل تَعِدُنى بشربه ؟

— نعم .

فأعطته الإنسية قطعة السكر ، فقضمها ، و « قرقشها » وبلعها فى أقل من لمح البصر ، ثم لحس أصابعه بعدها ، وقال :

— لو كان السكر دواء ، لرغبتُ كل يوم !

— والآن فعدْ واشرب هذه النقط القليلة من الماء ، فإنها تشفيك .

أمسكَ بينوكيو الكوب بيده ، ثم شمّ ما به ، وقرّبه من شفتيه ، ثم شمّه ثانية ، ثم قرّبه من شفتيه ، ثم قال :

— إنه مرّ ، مرّ جداً جداً ، ولا أقدر على شُربه .

— كيف تقول ذلك وأنت لم تذُقْهُ ؟

— أعرف أنه مرّ ، بإمكانى أن أشمه فأعرف أنه مرّ . اعطينى قطعة أخرى من السكر ، وبعدها أشربه .

وأعطته الإنسية قطعة أخرى من السكر (فقد كانت كالأمهات على جانب كبير من الصبر والرحمة والحنان) وضعها فى فمه ، ثم قدّمتْ له كوب الدواء .

فصار يحرّك أعضاء وجهه أشكالا ثم قال : « لا ، لا ! لا يمكننى أن أشربه وأنا على هذه الصورة » .

— والسبب ؟

— السبب أن هذه القدّة الموجودة على قدمىّ تُزعجنى .

وشالت الإنسية « القدّة » .

— لا فائدة ، لا فائدة ! فلا يمكننى أبداً أن أشرب الدواء وأنا على هذه الصورة .

— والسبب ؟

— السبب أن هذا الباب يُضايقنى لأنه مُوارَب .

وأغلقت الإنسية الباب . فصرخ بينوكيو باكياً وقال :

– لا ، لا ! أنا فى الحقيقة لا أريد أن أشرب هذا الماء المرّ ، لا ، لا ، لا ! » .

– يا بنىّ ، ستندم على ذلك .

– إننى لا أهتم .

– إنك مريض جداً .

– لا أهتم .

– إن هذه الحمى ستعجل موتك فى ساعات قليلة .

– لا أهتم .

– ألا تخشى أن تموت ؟

– كلا ! بل إننى لأفضّل الموت على شرب هذا الدواء الفظيع !

وهنا دُفع الباب بشدة فانفتح ، ودخلت منه أرانب أربع كبيرة سُود كالحبر ، تحمل على أكتافها نعشاً أسود .

فجلس پينوكيو خوفاً وفزعاً ، وصاح قائلا : « ماذا تريدون منى ؟ » .

قال أكبر الأرانب : « جئنا من أجلك » .

– من أجلى أنا ؟ ! لكننى لم أمت بعد !

– صحيح لم تمت ، ولكن كل ما بقى من حياتك دقائق قليلة ، تموت بعدها ، لأنك ترفض شرب الدواء الذى يشفيك فى الحال .

فصاح پينوكيو بالإنسيّة قائلا : « أيتها الإنسية ، أيتها الإنسية ،

أعطيني الكوب حالا .... أسرعي ... أسرعي بالله عليك ، فإني لا أريد أن أموت ! لا أريد أبداً أن أموت ! » .

وأمسك الكوب فى كلتا يديه ، وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة .

فوضع الأرانب النمش الصغير على أكتافهم ، وخرجوا من الغرفة يتمشمشون ويزمجرون غاضبين .

ومرّت دقائق ، قفز بعدها پينوكيو من السرير موفور العافية مستكمل الصحة . لأنكم ، يا أصدقائى الأعزاء ، تعرفون أن الأرجوزات الخشبية تمتاز بأنها لا تمرض إلاّ فى النادر القليل ، وإذا هى مرضت يوماً فإنها تشفى بسرعة مدهشة .

ولما رأته الإنسية يجرى ويلعب فى نواحى الغرفة فرحاً طروباً ابتسمت وقالت :

— إذن فقد أفادك دوائى .

— بل أكثر من هذا ، إنه أرجعنى إلى الحياة !

— فلماذا إذن أتعشمشنى حتى شربته ؟

— هذا حال الأطفال جميعاً . فنحن نخاف الدواء أكثر مما نخاف المرض .

— يا للعار ! يجب أن يعرف الأطفال أن الدواء الصالح حين يُؤخذ فى مواعيده يُنقذهم من المرض ، بل هو قد يُنجيهم من الموت .

— لن أتعشمشك بعد ذلك أبداً كما أتعشمشك هذه المرة . ولن أنسى

أبداً تلك الأرانب السود تحمل على أكتافها النعش الأسود . سأمسك الكوب فى يدى و ... هوب ... أشرب الدواء دفعة واحدة !

— والآن تعال إلىّ هنا ، وقل لى كيف وقعتَ فى أيدى القاتليْن.

— الحكاية وما فيها أنّ آكل النار ، صاحب المسرح ، أعطانى بضعة جنيهات ذهبية وقال : « خذ هذه لأبيك » . لكننى فى الطريق قابلت الثعلب والقط ، وهما غاية فى الظرف ، فقالا : « هل تُحب أن تتجعل من هذه الجنيهات ألف جنيه أو ألفين ؟ تعال معنا إذن نذهب بك إلى حقل المُعجزات » ، فقلت : « هيا بنا فى الحال » . فقالا : « سنستريح قليلا فى فندق (أبى جلمبو) الأحمر ، ثم نُعاود السير بعد ذلك عند منتصف الليل » . ولما صحوت فى منتصف الليل ، لم أجدهما ، لأنهما انصرفا قبل أن أصحو من نومى . وهل ذلك سبرتْ ورامهما فى الليل . وليس بالإمكان أن يظن المرء أن الظلام يكون أحياناً حالكاً إلى هذه الدرجة . وأنا فى طريقى قابلنى رجلان كبيران من أكياس الفحم . فقالا لى : « سلّم نقودك! » ، قلت : « ليس معى نقود ، فإنى كنت قد أخفيت الجنيهات الذهبية فى فمى . وحاول أحدهما أن يضع يده فى فمى لإخراجها فعضضتها فقطعتها . فلما بصقتُها رأيت أنها ليست يد إنسان ، بل عظم قط . وجرى القاتلان ورائى فجريت وجريت بأسرع ما يمكننى ، لكنهما لحقا بى وأمسكانى وعلقانى فى شجرة البلوط الكبيرة تلك ، وقالا : « سوف نجىء إليك غداً صباحاً ، وحينئذ تكون قد متّ وانفتح

فلك ، ونستطيع نحن أن نأخذ الجنيهات الموجودة تحت لسانك » .

قالت الإنسيّة : « وأين الجنيهات الذهبية الآن ؟ » .

فقال پينوكيو كاذباً : « ضيّعتها » ! فإن الجنيهات كانت في جيبه .

وكانت نتيجة كذبه هذا أن زاد طول أنفه (وكان من الأصل أطول من المعقول) قيراطين !

ـ وأين ضيّعتها ؟

ـ في الغابة هناك .

وكان كذبه للمرة الثانية ، سبباً في زيادة طول أنفه مرة أخرى قيراطين آخرين .

ـ ما دامت قد ضاعت في الغابة فبإمكاننا أن نذهب لنبحث عنها هناك ، فربما نعثر عليها ، لأن كل ما يضيع في الغابة يمكن العثور عليه .

فقال « الأرجوز » ، وقد اضطرب اضطراباً شديداً :

ـ آه ، لقد تذكرتُ الآن : إني لم أضيّعها ، بل لقد بلعتُها !

ونتيجة لكذبه للمرة الثالثة زاد أنفه مرّة أخرى قيراطين آخرين !

ثم أخذ يمد ذلك يطول ، ويطول ، ويطول ، حتى أصبح طويلاً جداً جداً ، وحتى عجز الأرجوز المسكين عن الحركة في أيّ اتّجاه . فكان إذا التفت إلى اليمين ضرب أنفه السرير أو زجاج الشباك ، وإذا التفت إلى الشمال ضرب أنفه الحيطان أو الباب ، وإذا رفعه قليلاً أصاب

عين الإنسيّة الجميلة فعرضتْ للخطر الشديد .

وكانت الإنسية في أثناء ذلك تراقبه وتضحك .

واضطرب « الأرجوز » وتضايق من طول أنفه ، وكان لا يزال يزيد طولاً على طول . فقال للإنسيّة :

ـ علام تضحكين ؟

ـ أضحك على كذبك .

ـ وكيف عرفتِ أني أكذب ؟

ـ إنّ الكذبَ يا بنيّ تسهُل معرفته . والكذب نوعان : الكذب ذو الأرجل القصيرة ، والكذب ذو الأنوف الطويلة . وكذبُك أنت من النوع الثاني ، ذي الأنوف الطويلة .

حاول پينوكيو أن يُخفي وجهه خجلاً . وحاول أن يهرب من الغرفة . لكنه لم يقدر ، لأن أنفه الطويل الطويل منعه من الوصول إلى الباب ! ! !

١٨

تركت الإنسيّة پينوكيو يبكي ويصرخ ويُولْول ساعة ونصف ساعة ، بعد أن عجز عن الوصول إلى الباب ، لطول أنفه المُتزايد . لقد فعلتْ ذلك عقاباً له على كذبه ، ولكي تنقيه من تلك العادة

المسكومة ، التى هى من أقبح العادات التى يمكن أن يتصف بها الأطفال . لكنها حين رأت وجهه مُنْتَفِخاً من كثرة البكاء ،

وعينيه قد خرجتا من وجهه من شدة اليأس ، أخذتها الشفقة به ، فصفقت بيديها . وعندئذ دخل الغرفة من الشباك ألف طائر كبير من الطيور نقار الخشب ، وحطت جميعاً فوق أنف بينوكيو ، ثم أخذت تنقره بمناقيرها بهمة زائدة ونشاط بالغ ، حتى عاد الأنف الطويل جداً ، المضحك جداً ، إلى حجمه الطبيعى فى دقائق معدودات .

قال بينوكيو وهو يمسح عينيه : « ما أطيب قلبك ، أيتها الإنسية العزيزة ! إنى أحبك جداً جداً ! ! » . فأجابته الإنسية وقالت :

— وأنا أيضاً أحبك يا بينوكيو . وإن أنت بقيت معى فستكون أختى الصغير العزيز ، وأكون أنا أختك المحبة » .

— كان يودّ أن أبقى معك ... لكن ما قولك فى أبى المسكين ؟

— لقد فكرت أنا فى كل شىء ، ورتبت كل شىء . إن أباك يعرف جميع أخبارك ، وسيكون هنا معنا عند المساء .

فكاد بينوكيو يطير من الفرح لهذا الخبر السار ، وصاح وهو يقفز

طرباً ويصفق بيديه :

— أحقاً ما تقولين ؟ إذن فاصحى يا ، أيتها الإنسية العزيزة ، أن أذهب لقائه ، فلا يمكننى أن أصبر أكثر من هذا . إنى مشتاق لرؤية هذا الرجل الطيب العجوز ، الذى فانى بسببى كثيراً !

— اذهبْ ، اذهب ، لكن حاذر أن تضلّ الطريق ، امشِ من الطريق الذى يخترق الغابة ، فلا بد أن تلقاه فى أثناء مجيئه .

وخرج بينوكيو فرحاً ، وراح يجرى فى الغابة بسرعة الغزال الرشيق ، حتى وصل إلى شجرة البلوط الكبيرة ، خُيِّلَ إليه أنه يسمع شيئاً يتحرك بين الأشجار ، فوقف . وعلى حين فجأة ظهر له فى الطريق ... زميلاه فى السفر ، اللذان تناول معهما طعام العشاء فى فندق « أبى جلميو » الأحمر ، الثعلب والقط ! ! !

وفتح له الثعلب ذراعيه واحتضنه وقبّله وقال : « أهلا يا بينوكيو ، يا صديقنا العزيز ، ما الذى جاء بك إلى هذا المكان ، أيها المحبوب ؟ » .

قال القط : « هذا المكان ، أيها المحبوب » .

فقال بينوكيو : « إنها حكاية طويلة . ومع ذلك فسأقصها عليكما فيما بعد عند ما يتسع وقتى لذلك . ولكن اعلما ، على كل حال ، أنى حين تركتمانى وحيداً فى تلك الليلة قابلت فى طريق قاتلين مخيفين » .

— قابلت قاتلين ؟ ؟ ! أوه ، أيها الصديق العزيز المسكين ! وما الذى كان يريدانه منك ؟ ؟

ـ كانا يريدان سرقة نقودى .

ـ يا للقطاعة ويا للعار ! هذا مخجل وفظيع !

فقال القط : « مخجل وفظيع ! »

واستمرّ پينوكيو فى كلامه قال : « لكنّى انطلقتُ أجرى كالسهم ، فجريا ها وراءى بلاحقانى ، حتى أمسكا بى عند هذه الشجرة ، فعلّقانى بفرع من فروعها » . وأشار إلى شجرة البلوط الكبيرة .

قال الثعلب : « هذا فظيع ! هل سمعت فى حياتك بأفبح من هذا ؟ أيّة دنيا هذه التى كُتِبَ علينا أن نعيش فيها ؟ إذن فأمثالنا من الناس الطيّبين والأمناء لا يمكنهم أن يعيشوا فى أمان ! ياسبحان الله ! ! أين إذن نعيش إن لم نجد الأمن والطمأنينة فى هذه الحياة ، رحمتك يا رب ! »

ولاحظ پينوكيو فى أثناء الحديث أن رجل القط الأمامية التى خرجاء ، لا يستطيع الوقوف عليها ، لأن الخطب لم يكن له وجود . فقال له : « ما الذى حدث لقدمك ؟ » .

فأراد القط أن يرد عليه ، لكن العقد لسانه ، فلم ينطق بكلمة واحدة . وحينئذ قال الثعلب :

ـ إن صديقى القط متواضعٌ جداً ، وهو لهذا السبب لا يجيب عن سؤالك . فاسمح لى أنا أن أخبرك ، نيابة عنه ، بما حدث له . لقد قابلنا من نحو نصف ساعة ذئباً كبيراً عجوزاً يكاد يموت جوعاً . فلما رآنا طلب منا قطعة من الخبز . لكننا لم يكن معنا شىء نعطيه إياه .

وحينئذ . . . وحينئذ . . . ماذا تظن القط قد فعل ، وهو الذى تعرفه نبيلا طيب القلب ؟ لقد تألّم لحال الذئب وما أصابه من ضعف سببه الجوع الشديد ، فعض على قدمه فقطعها ، وأعطاه الذئب المسكين يتبلّع به . . . !

ومسح الثعلب بيده دمعةً تحدّرت على خده ! ! !

أثّر فى پينوكيو سماع هذه القصة ، فاقترب من القط ، وهمس فى أذنه وقال : « لو كانت القطط جميعاً مثلك ، لكانت الفئران أسعد مَن فى هذا الوجود ! » .

قال الثعلب : « وما الذى جئتَ تعمله هنا ، فى هذا المكان ؟ » .

ـ جئتُ أنتظر وصول أبى . إنه سوف يصل بعد قليل .

ـ وجيبك ألذهبية ؟

ـ فى جيبى كلها ، إلا ذلك الذى دفعته ثمناً لعشائنا فى الفندق .

ـ تصوّر يا پينوكيو أنه مكتوب عليك أن لا يكون معك إلا أربعة حبات ذهبية ، فى حين يمكنك أن تملك غداً ألفاً أو ألفين ! لماذا لا تأخذ بنصيحتى ؟ لماذا لا تزرع حباتك فى غيط المعجزات ، فتُصبح من الأغنياء ؟

ـ مستحيل أن أذهب معكما اليوم . إن اليوم بانتظار أبى ، سأذهب معكما فى وقت آخر .

ـ إن لم تذهب ، ضاعت عليك الفرصة .

– ولماذا ؟

– لأن رجلاً من الأغنياء اشترى ذلك الغيط ، وقرّر ألا يسمح لمخلوق بعد اليوم أن يزرع نقوده فيه .

– وما المسافة بيننا الآن وبين هذا الغيط ؟

– تزيد قليلاً عن كيلو متر ، هل تجيء معنا ثم ترجع في أقل من نصف ساعة ، بعد أن تكون قد زرعتَ جنيهاتك الذهبية الأربعة ، فتحصدها بعد دقائق قليلة ألفاً أو ألفين ، وترجع إلى البيت غنياً ، قد امتلأت جيوبك بالذهب الرنان ؟

تردّد پينوكيو قليلاً . لقد تذكر الإلهية الجميلة ، وتذكر أباه جيپتو العجوز ، وتذكر تحذير الصرصور المتكلم . لكنه مع هذا فعل ما يفعله أي طفل لا عقل له ولا قلب : فقد هزّ رأسه ، وقال لصاحبيه الثعلب والقط :

– هيا بنا ! إني ذاهب معكما !

وانطلقوا .

وظلّوا سائرين نصف النهار تقريباً ، حتى وصلوا إلى مدينة اسمها « فخّ البُلَهاء » . فلما دخلوها رأى پينوكيو الشوارع ملأى بالكلاب شعرها قد سقط ، وأفواهها مفتوحة من أثر الجوع والعطش ، ورأى خرافاً منحولاً شعرها ، ترجف من شدة البرد ، « وكتاكيت » لا ذيل لها ، وديكة بغير عرف ، وحماماً كثيراً يشحذ حبة واحدة من القمح فلا يجدها ،

وفراشاً قد عجز عن الطيران لأنه باع أجنحته الجميلة ، وطواويس لا ذيل لها تحاول الاختباء خجلاً في الأركان ، بعد أن فقدت أذيالها ذات الألوان البديعة ، وطيوراً بريةً حزينة تبكي وتندب حظها التعس ، بعد أن ضيّعتْ ريشها الذهبيّ الجميل .

كذلك رأى پينوكيو – وسط هذا الجمع الحاشد من الشحاذين والحيوانات التي تخفي وجهها من شدة الخجل – عربات جميلة فخمة ، تسير من وقت لآخر ، وفيها ثعلب أو غراب أو طائر من الطيور الكاسرة .

وسأل پينوكيو صاحبيه قائلاً : « ولكن أين غيط المعجزات ؟ »

فقال الثعلب : « ستصل إليه بعد قليل جداً » .

واخترقوا المدينة كلها ، فلما تخطّوا أسوارها الخلفية ، رأى پينوكيو غيطاً مهجوراً لا يختلف عن أي غيط آخر .

قال الثعلب : « هذا هو الغيط العجيب الذي حدّثناك عنه . والآن ، احفر بيديك حفرة صغيرة ، ثم ضع فيها نقودك الذهبية » .

وأطاع پينوكيو ، فحفر الحفرة ، ووضع فيها جنيهاته الذهبية الباقية ، ثم غطّاها بالتراب .

قال الثعلب : « والآن ، اذهبْ إلى البئر التي بجوار طاحونة الهواء ، تجد بجوارها جرّة . املأ الجرة ماء ، وأحضر الماء ، وصبّه فوق الحفرة التي زرعتَ فيها جنيهاتك لتروي بها » .

وذهب بينوكيو إلى البئر التي بجوار طاحونة الهواء ، لكنه لم يجد بجوارها جرة . فخلع قردة حذاءه وملأها ماء . فلما عاد إلى الحفرة المغطاة بالتراب ، رشّ عليها الماء جميعاً . ثم قال لصاحبيْه :

— وما الذي يجب علىّ أن أفعله بعد ذلك ؟

قال الثعلب : « لا شيء أكثر من ذلك . فأنت الآن تستطيع أن تنصرف . ويمكنك أن ترجع بعد نحو عشرين دقيقة . وستجد حينئذ شجرة صغيرة قد نمت في هذا المكان ، وامتلأت أغصانها بالنقود اللذيذة . . . » .

وكاد بينوكيو يطير من شدة الفرح لِما سمع ، وشكر الثعلب والقط جميلهما ألف مرة ، ووعدهما بهدية جميلة . فقال الثعبان :

« هدية ؟ ماذا تقول ؟ ! أتحسب أننا عملنا ما عملنا لكي تقدّم لنا هدية ؟ لا ، يا أصدقائي ، لا ! إنما فعلنا ذلك لكي نراك غنيًّا . فنحن يسعدنا أن نصبح غنيًّا من غير أن نتعب ، يسعدنا ذلك غاية السعادة . . . »

ثم تمنّى له محصولا وافراً باهراً ، وودّعاه ، وانصرفا .

عاد بينوكيو للمدينة . وبدأ يعدّ الدقائق واحدة بعد واحدة فرحاً مسروراً . فلما ظن أنّ الدقائق العشرين قد انقضت ، رجع مُسْرِعاً إلى عبط المعجزات .

وراح يجري مسرعاً بأقصى ما يستطيع ، وكان قلبه يدق كالساعة : تيك — توك ، تيك — توك ، تيك — توك ، تيك — توك . وكان يُحدّث نفسه قائلا :

« ما قولُك يا بينوكيو دام فضلُك ، إن أنت وجدت بدل الجنيهات الألف فوق أغصان الشجرة ألفين ؟ وما قولك دام فضلك ، إن وجدت فوقها بدل الألفين خمسة آلاف ؟ بل ما قولك دام فضلك ، إن أنت وجدت بدل الآلاف الخمسة مائة ألف ؟ أوه ، إنك إذن تكون قد أصبحت رجلا غنيًّا كأي رجل غني آخر ! حينئذ يكون لك يا بينوكيو قصرٌ فخمٌ عظيم ، فيه خدَم وفيه حشَم ، وفيه ألف حصان حتى وألف إسطبل ، وحراقة كبيرة ملأى بالكعك والحلوى وعصير الليمون بالسكر ، ومكتبة ملأى بأنواع الفاكهة المسكرة والفطائر اللذيذة ، بالكعك المصنوع من اللوز الخالص وأشكالا وألواناً من المهلبية ! »

وإذْ كان لا يزال غارقاً في أحلامه هذه وتخيلاته الجميلة تلك ،

وصل إلى مَرْمَى البصر من الغيط . فوقف مكانه وسدّد النظر إلى الأفق البعيد وكله أمل فى أن يرى تلك الشجرة الموعودة بفروعها المحمّلة بالنقود الذهبية ، تبرق وتلمع . لكنه لم ير شيئاً . فسار خطوات أخرى ثم وقف . . . لكنه لم ير شيئاً . فعاد يمشى بضع خطوات ثم وقف . . . لكنه مع ذلك لم ير شيئاً . ووصل إلى الغيط ودخل فيه وسار حتى وصل إلى المكان الذى دفن فيه نقودَه الذهبية ، لكنه لم ير هناك شيئاً ما . فأمسك ذقنه بإحدى يديه وأخذ يفكر ، ثم حكّ بيده رأسه بشدة ، ناسياً أصول اللياقة وآداب السلوك .

وفى هذه اللحظة رنّت فى أذنيه ضحكة عالية . فلما التفت رأى ببغاء عظيماً فوق شجرة مجاورة ، يلقط بمنقاره البراغيث من الريش القليل الذى بقى بجسمه .

قال پينوكيو والغم يملأ قلبه :

— ما الذى يُضْحِكك يا هذا ؟

— أضحك لأنى بينما كنت أنظف ريشى دغدغتْ نفسى تحت إبطى .

فلم يجبه پينوكيو . بل راح فى صمت إلى البئر المجاورة ، وملأ قِرْدة حذائه ماء ، وعاد بها مسرعاً ورش الماء فوق الحفرة المغطاة بالتراب .

لكنه ما لبث أن سمع ضحكة أخرى ترنّ فى أذنيه أعلى من سابقتها . . . ها ها ها . . . ! دوّت فى أرجاء الغيط ، وعاد إليه صداها

بعد قليل أكثر وقاحة واستهزاء . فصاح بالببغاء غاضباً ، وقال :

— اسمع يا أخانا . هل تسمح لى أن أسألك عن سبب ضحكك ، أيها الببغاء الوقح ؟

— إنى أضحك من « البُلَهاء » الذين يصدقون كل ما يقال لهم من كلام فارغ ، ويخدعهم مَنْ هم أقل منهم ذكاء .

— هل تتكلم عنى أنا ؟

— نعم ، أيها المسكين پينوكيو ، أتكلم عنك أنت يا من بلغتَ من البلاهة درجة كبيرة ، حتى صرتَ تصدق أن بإمكانك أن تزرع نقوداً قليلة فتحصد نقوداً كثيرة ، كأنها حبة فول أو فول شعير ! لقد صدّقتُ أنا أيضاً من قبلك هذا الكلام الفارغ ، فصرتُ فى هذه الحال المُؤْلِمة التى ترانى الآن فيها . ولكننى الآن — بعد ضياع الفرصة . مع الأسف الشديد — قد تعلمت أنّ الذى يريد أن يربح مالاً ، عليه أن يربحه بأمانته وتعبه وعرَق جبينه وعمل يديه ورأسه .

قال پينوكيو وقد بدأ يرتجف من الخوف : « لا أفهم ما تقول . ماذا تريد بكلامك هذا » .

قال الببغاء : « صبراً ، يا پينوكيو ، فسأوضح ما أقول . لما كنتَ فى المدينة ، نجاه الثعلب وصاحبه القط ، فرفعا التراب عن الحفرة ، وأخذا نقودك وهربا بسرعة الريح » .

فانفتح فم پينوكيو دهشة وفزعاً ، ثم راح يكشف التراب عن الحفرة بهمّة زائدة . وظلّ يحفر ويحفر ويحفر ويحفر ، حتى أصبحت الحفرة كبيرة كالبئر . لكنه مع ذلك لم يجد من نقوده الذهبية شيئاً .

وعندئذ عاد إلى المدينة يائساً يجرى كالمجنون ، وقصد إلى المحكمة مباشرة ، ليبلغ القاضي ما كان من أمر اللصين الفظيعين ، اللذين خدعاه وسرقا نقوده .

وكان القاضي قرداً عجوزاً ، عجوزاً جداً ، مهيب الطلعة وقوراً محترماً ، له لحية بيضاء طويلة تتدلّى على صدره ، ويلبس « نظارات » ذهبية براقة ليس فيها زجاج ، لكنه كان مع ذلك مضطرّاً للبسها لأنه كان يشكو مرضاً بعينيه قديماً !

فلما دخل عليه پينوكيو بجياش باحترام ، قصّ عليه ما كان من أمر اللصين ، وكيف أنهما خدعاه واحتالا عليه حتى سرقا جنيهاته

الذهبية ، فلما انتهى من روايته ، طلب من القاضي إنصافه وتنفيذ القانون .

وكان القاضي يُنصت ساكتاً تبدو عليه الطيبة والمهابة . واهتمّ كثيراً لما سمع ، وأظهر أسفه على ما حدث لپينوكيو المسكين ، حتى إذا انتهى الأخير من شكايته ، دقّ القاضي الجرس دقّاً عالياً .

وعندئذ ظهر أمامه كلبان كبيران في زي رجال الشرطة .

وأشار القاضي إلى پينوكيو وقال لهما : « هذا المسكين قد خدعه حادّ عان ، وسرقا نقوده الذهبية . خذاه إذن إلى السجن واحبساه ! » .

وصُعق پينوكيو ، وأراد أن يحتجّ على هذا الحكم العجيب . لكن الشرطيين أطبقا أيديهما على فمه ، وجرّاه إلى السجن جرّاً .

بقي پينوكيو في السجن شهوراً أربعة ، شهوراً أربعة طويلة مرّت كأنها أعوام . وكان من الممكن أن تطول مدة حبسه ، لو لم يحدث — لحسن حظه — أن الإمبراطور الصغير لمملكة « فخ البُلْهاء » ، لما انتصر على أعدائه انتصاراً عظيماً حاسماً ، أراد أن يحتفل بهذا الانتصار احتفالاً فخماً باهراً ، فأمر بإقامة الزينات والحفلات في كل مكان من مملكته . فكنتَ ترى في كل رُكن من أركان المملكة الأنوارَ الجميلة و « الصواريخ » وحلقات سباق الخيل والسرابيات . وأحسنُ من هذا كلّه وأجمل ، أنه أمر بفتح أبواب السجون جميعاً ، ليخرجَ منها كلّ منْ فيها من اللصوص والمحتالين والأوغاد والقتلة والمجرمين .

قال بينوكيو للسجان : « ما دام كل سجين قد خرج ، فأنا أيضاً أريد أن أخرج » .

قال السجان : « لا ، لا يمكنك أن تخرج ، لأنك لست من هذه الطبقة » .

قال بينوكيو : « عفواً يا سيدى ، فأنا أيضاً وَفْدٌ من كبار الأوغاد » .

قال السجّان : « ما دام الأمر كذلك ، فالحقّ معك ، وتستطيع إذن أن تخرج » .

ثم إنه رفع قبعته لبينوكيو احتراماً ، وانحنى له وفتح باب السجن وتركه يخرج !

٢٠

يمكنكم يا أصدقائى الأعزاء أن تتصوروا فرح بينوكيو بعودة الحرية إليه ، بعد أشهُرٍ أربعة قضاها المسكين فى السجن من غير ذنب جناه . فلما غادر السجن خرج مُسرعاً من المدينة ، ومشى فى الطريق الذى يوصله إلى بيت الإنسية .

كانت السماء تُمطر شديداً ، والوحل كثيفاً عميقاً غاصت فيه قدّماه إلى الرُّكبتين . ومع ذلك فلم يكن يهتم بكل هذا ، لأنه لم يفكر إلا فى

أنه سوف يرى أباه المسكين ، وأخته الصغيرة الجميلة ، ذات الشعر الأزرق ، فكان يجرى طَروباً ويقفز هنا وهناك ، فى حين كان الوحل يتطاير من حوله إلى ما فوق رأسه . وكان يحدّث نفسه قائلاً :

« أيْنَهْ بلايا تلك التى نزلت بى . . . إننى فى الحقيقة أستأهلها جميعاً . لقد أردتُ أن أعيش حسب هوَاى ، وألا أسمع لنُصح الناصحين الطيبين ، والذين هم أعقل منى ألف مرة ! لكننى منذ هذه اللحظة سوف أحيا حياة تختلف تماماً عن كل ما مضى من حياتى . سأكون مطيعاً عاقلاً ، أسمع كلامَ الكبار ، لأننى عرفت أن الأطفال الذين لا يُطيعون من هم أكبر منهم ، لا يتألم إلا الشرّ ، ولا يكسبون غير السقم . وأبى المسكين ، ألا يزال ينتظرنى ؟ وهل أجده فى بيت الإنسية ؟ لقد مضى وقت طويل منذ رأيتُه آخر مرّة ، حتى لم أعُد أقدر على الصّبر ، إلى متى رأيتُه فسأألف فراعىّ حول عنقه وأقبّله قبلات طويلة حارّة ، كلها حب وحنان . ثم هل تُسامحنى الإنسية بعد ما كان منى من عِصيان ، وما بذلتْه لى هى من عناية وحب وعطف ورعاية؟ إننى إن كنت اليوم حيّاً فما ذلك إلا بفضلها هى . وهل يمكن أن يوجد فى هذه الدنيا ولد أكثر منى نكراناً للمعروف ؟ » .

وما إن فرغ من كلمته هذه ، حتى توقّف فجأة فى وسط الطريق وقد ملكه فزع ورعب شديدان ، فرجع إلى الوراء خطوات مُسرعات ، وقد كادت أنفاسُه تنقطع من شدة الخوف .

ما الذى رآه فأفزعه هذا الفزع الشديد ؟

لقد رأى المسكين ثعباناً هائلاً فظيعاً ممدوداً يعرض الطريق ، جلده أخضر وعيناه تُرْسِلان ناراً . وأمامذيله فكأنه المدخنة العظيمة يخرج منه دخان أسودُ كثيف !!!

إنى يا أصدقائى الأعزاء لا أجد من الكلمات ما يكفى لوصف ما أصاب بينوكيو من فزع شديد . لقد تراجع إلى الوراء مسرعاً ما يزيد على ألف مترٍ ! وجلس على كومة من الحجارة كى يرى ما يفعله الثعبان الفظيع ، مُنتظراً فى أثناء ذلك ذهابه وانصرافه ، وحتى تُصبح الطريق أمامه حرة خالية .

انتظر بينوكيو ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث ساعات . لكن الثعبان لم يتحرك من مكانه ، بل بقى حيث كان . على أن بينوكيو كان وهو فى مكانه فوق كومة الحجارة يرى عينى الثعبان النارِيَّتَيْن ، وذيله الذى هو كالمدخنة يُخرج عموداً كثيفاً من الدخان الأسود .

واستجمع بينوكيو كل شجاعته ، واقترب من الثعبان الفظيع وقال له فى صوت واطئٍ حلو مُغرٍ : « أيها الثعبان الكريم عفواًومعذرة! لكننى أرجو أن تسمح بأن تتحرك قليلا من موضعك هذا كى أتمكن من المرور » .

لكنه كان كمن يكلم جداراً من الحجر الأصم ، فلم يسمع لكلامه جواباً !

وعاد يقول مرة ثانية ، وبنفس الصوت الواطئ الحلو المُغْرِى :

« أنت يا سيدى الثعبان لا شكّ تعرف أنى ذاهب إلى البيت ، وأنّ أبى ينتظر هناك رُجوعى بفارغ الصبر . فقد مرّ وقت طويل لم أره فيه . فهل تسمح أيها الثعبان الكريم بأن تتحرك قليلاً من موضعك هذا كى أتمكن من المرور ؟ » .

وانتظر أن يتلقّى من الثعبان إشارة مّا جواباً عما قال . لكن الثعبان بدلا من أن يجيبه أو يشير له أية إشارة ، بقى هادئاً لايتحرك بل لقدأقفل عينيه وتوقف ذيله عن إخراج الدخان ، بعد أن كان يشير إلى تلك اللحظة أنه ممتلىء بالحياة ، حتى حسب الأرجوز المسكين أنه مات .

قال بينوكيو : « لعله قد مات ! » وفرك يديه فرحاً ، ولوى أن يمرّ من فوقه دون أن ينتظر لحظة أخرى . لكنه فى اللحظة التى رفع فيها قدمه ، قام الثعبان فجأة ، مُنْدفعاً كأنه « الزنبرك » ، فقفز بينوكيو إلى الوراء مُسرعاً فتزحلق دون أن يحتاط ، فانقلب على رأسه ووقع على الأرض .

وكان سقوطه شديداً على الأرض الموحلة ، فانغرز رأسه فى الوحل وبقيت قدماه فى الهواء .

ولما رأى الثعبانُ « الأرجوز » مغروزاً فى الوحل تتحرك قدماه فى الهواء حركة سريعة ، لا يقدر عليها أى « أرجوز » آخر فى الدنيا غيره ، أصابته نوبة شديدة من الضحك ، فصار يضحك ضحكاً عالياً كأنه الرعد . وصار يضحك ويضحك ويضحك ويضحك ، حتى انفجر آخر الأمر شريان من شرايين دماغه ، فمات فى الحال .

وكان بينوكيو قد تمكن من الخلاص من الوحل . فلما رأى الثعبان قد مات ، انطلق يجرى مسرعاً إلى بيت الإنسية لكى يصل إليه قبل الظلام . لكنه أحس فى أثناء الطريق بالجوع يمزق أمعاءه ، حتى عجز آخر الأمر عن احتماله . فقفز فوق جدار ليلتقط عنقوداً من العنب يُشبعُ به جوعَه .

آه ، ليتَه لم يفعل ذلك !

وإنه ما إن وصل إلى عناقيد العنب حتى شعر أن رجليه قد أمسكتهما حديدتان حادتان قويتان . وأنهما توجعانه وجعاً شديداً فظيعاً .

لقد وقع المسكين فى فخّ متين وُضع هناك فوق الجدار ليمسك ابن عرس كبيراً ، كان ينشر الفزع والرعب فى جميع أعشاش الدجاج فى تلك الناحية . .

٢١

ويُمكنكم يا أصدقائى أن تتصوّروا صياح بينوكيو وصراخه وعويله وبكاءه ، طلباً للنجدة والمعونة . لكن ذلك كله لم تكن له أية فائدة ، لأن تلك الجهة كانت خالية من البيوت القريبة ، ولم يكن يمرّ بها فى مثل ذلك الوقت محلوق .

وجاء الليل .

وكاد بينوكيو يغمى عليه بسبب الآلام الشديدة الناتجة من إطباق فكّ الحديديّ على ساقيه ، وبسبب الخوف الذى أصابه من وحْدته فى الظلام الحالك وسط الغيطان المهجورة الموحشة .

ورأى فى أثناء ذلك بَرَاغةً (ذبابة ينير جسمها بالليل) تمر من فوق رأسه فناداها قائلا : « أيتها البراعة الجميلة . هلا تأخذك فى الشفقة عليّ وتخلصينى من هذا العذاب الذى أنا فيه ؟ » .

فنظرت إليه اليراعة فى عطف وقالت : « مسكين أيها الولد ! كيف أمكنك أن تقع فى هذا الفخ القاطع الحاد ؟ ؟ » .

— دخلتُ الغيط لأقطع عنقوداً من العنب ، و . . .

— ولكن هل العنب عنبك ؟

— لا . . . .

— فمِمَّن الذى علّمك أن تأخذ شيئاً لا تملكه ؟

— كنت أشعر بالجوع . . .

— ليس الجوع يا ولدى عذراً ، أو سبباً لتأخذ ما ليس لك .

— هذا صحيح ، صحيح ! ولن أفعل ذلك بعد اليوم قط .

وقطع حديثهما هذا صوتُ أقدام تسير نحوهما . إنه صاحب الغيط قد جاء ماشياً على أطراف أصابع قدميه ، كى يرى هل اصطاد فخُّه إحدى بنات عرس التى كانت تأكل دجاجَ بالليل .

وأخرج الرجل مصباحه من تحت معطفه ، فأدهشه أن يرى

فى الفخ ولداً ، بدلاً من ابن عرس .

قال الفلاح غاضباً : « آه ، أيُّها اللص اللعين ! إذن فأنت الذى تسرق دجاجى ! » .

فقال پينوكيو باكياً : « لا ، لا يا سيِّدى . صدِّقنى إن قلت لك إنى ما جئتُ هنا قبل اليوم قط ، وإنى ما أردت دخولَ الغيط إلا لأقطف عنقوداً من العنب » .

— إن الذى يسرق العنب يسرق الدجاج أيضاً . اتْرُكْ لى أنا هذه المسألة ، فسأعلمك درساً نافعاً لن تنساه ما بقىَ من حياتك .

وفتح الرجل الفخ ، وأمسك پينوكيو من يافته ، ووضعه تحت إبطه ، كأنه خروفٌ صغير !

ولما وصل إلى فناء داره ، رماه على الأرض ، ووضع إحدى قدميه فوق رقبته وقال :

« لقد تأخر بى الوقت ، ولَسْتُ أحسُّ رغبة فى النوم . ولذلك سأجلس معك إلى الصباح ، على أنى قد خطرتْ لى الآن فكرة جميلة . إنك تعرف أن كلبى الأمين ، الذى كان يقوم لى بالحراسة ، قد مات هذا الصباح ، وعلى ذلك فَسَتَحِلُّ أنت محله . ستكون أنت كلب الحراسة فى هذا البيت وهذا الغيط . ما قولك فى هذا ؟ جميل طبعاً ، جميل ! أليس كذلك ؟ » .

ولم يَضَع الرجل دقيقة واحدة ! بل أخذ فى الحال السلسلة

والحلقة التى يضعها حول رقبة الكلب ، وكانت الحلقة من الجلد المتين ، تزيّنها أزرار من النحاس الأصفر ، فربطها حول عنق بينوكيو ، وشدّها ، بحيث أصبح من المستحيل عليه بعد هذا أن يخلص منها مهما حاول ذلك ، ثم شبك السلسلة بالحائط ، وأحكم شبكها .

ولما انتهى الفلاح من ذلك قال : « إن أمطرت السماء هذه الليلة فى إمكانك أن تدخل هذا الصندوق الخشبى الذى كان مخصصاً لنوم كلبى المرحوم . ولا تخشَ أن تفتح أذنيك تماماً لكل صوت ، وإذا حدث أن جاء اللصوص ليسرقوا دجاجى ، فلا تنس أن تنبح نبحاً عالياً كى أستيقظ » .

وترك الرجل بينوكيو على هذه الحال ودخل بيته لينام ، وأقفل الباب وراءه . فجلس الأرجوز المسكين فى الفناء باسطاً ذراعيه فى حالة هى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، من شدة الجوع والخوف .

وكان من لحظة إلى أخرى يُدخل أصابعه تحت ياقته الجديدة ، التى كانت تشدّ على رقبته شداً موجعاً ، ويكلم نفسه باكياً يقول :

« لا شك أنه درس نافع لى ! درس نافع جداً ! اللذى أردتُ أن أعيش حياة كسل وتسكّع ، واستمعتُ لنصح ونَصَحاء السوء . هأنذا أجنى هذه الحياة التعسة المنكودة . لو أنى حاولت أن أصبح حالى ، وأصبح ولداً طيباً عاقلاً ، أو لو أنى كنت راغباً فى العمل مع أبى المسكين أساعده على متاعب الحياة ، لما كنت الآن هنا فى هذا المكان ، أعيش

عيشة الكلاب . وأقوم بعمل الكلاب ، وأحرس أشياء هذا الفلاح كأنى كلب . آ . . . ه ، وألف مرة آه ! لافائدة من كل هذا ، لقد ذاقت الفرص الجميلة ، ولم يبق إلا أن أصبر على بلواى ، فى هذا المكان المنفرد البعيد عن كل مكان معمور » .

وشعر ببعض الراحة إذ قرر أن يصبر . ثم زحف على قدميه ويديه ، ودخل الصندوق الخشبى ، ونام . . .

٢٢

نام بينوكيو فترة تزيد على الساعتين . فلما كان نصف الليل ، أيقظه همس وتمتمة وأصوات خافتة غريبة . فلما فتح عينيه وتسمّع ، عرف أنها تأتيه من الفناء . فلما أخرج أنفه من الصندوق رأى حيوانات أربعة ذات فراء قاتمة ، تتكلم معاً . لقد كانت هيئتها كهيئة القطط ، لكنها لم تكن قططاً . إنها كانت من بنات « عرّس » (عِرْس) آكلة الحوم ، المغرمة — بصفة خاصة — بأكل البيض والدجاج والكتاكيت .

وتركت إحداها زميلاتها واقتربت من صندوق الكلب وقالت فى صوت واطئ كالهمس :

— مساء الخير يا عزيزى ميلامبو !

قال بينوكيو : « ليس اسمى ميلامبو ! » .

— آ . . . ه ؟ ! إذن ما اسمك ، ومن أنت ؟

— أنا بينوكيو .

— وماذا تفعل هنا ؟

— أنا كلب الحراسة .

— وأين ميلامبو ؟ أين ذلك الكلب العجوز الطيب الذى يعيش هنا ؟

— مات هذا الصباح .

— مات ؟ مسكين ! كان طيب القلب جداً ، رحمة الله عليه ، على أنى ، مع ذلك ، أرى من هيئتك أنك ، أنت أيضاً ، كلب طيب القلب .

— لا تؤاخذينى ، فلستُ كلباً .

— آ . . . ه ؟ ! إذن ما أنت ، إن لم تكن كلباً ؟

— إنى أرجوز .

— وتقوم بعمل كلب الحراسة ؟ !

— نعم ، مع الأسف ، عقاباً لى .

— عقاباً لك ؟ وكيف كان ذلك ؟ على أن هذا لا يهمنا . إننا نتفاهم على الأساس الذى اتفقنا عليه مع المرحوم ميلامبو . أنا واثقة أنك ستكون مسروراً سعيداً ، متى عرفت شروطنا .

— وما هذه الشروط التى تعرضينها علىّ ؟

— شروط سهلة عليك جداً ، حسنة للغاية . ستجىء هنا ليلة واحدة من كل أسبوع ، عند منتصف الليل ، لتأخذ « عشة » الدجاج تلك ، كما كنا نفعل فى كل ما مضى ، فتأخذ سبعاً من الدجاج ، تعطيك منها واحدة لعشائك ، وتأخذ نحن ما يتبقى ، وذلك بشرط (وأنت تفهم هذا طبعاً) أن تتظاهر بالنوم حين تجىء ، وألا تبح أبداً لتوقيظ الفلاح .

— وهل هذا ما كان ميلامبو يتعمله ؟

— بالضبط ، لا أكثر ولا أقل ! كنا متفاهمين معاً كل التفاهم ، وكانت الأمور تمشى على ما يُرام كأنها على عجلات . والآن ، تم فى أمان ، وتأكد أننا قبل أن نتصرف ستجيئك بدجاجتك بعد أن نطهوها لك ونجهزها تجهيزاً ! هل فهمت ؟

— بالتأكيد فهمت ؟ فهمت كلّ ما تقولين .

قال بينوكيو هذه العبارة وهو يهز رأسه لضيفته مهدداً ، وكأنه

يريد أن يقول : «وسرى في الحال كيف تُدَبَّرُ الأمور !» .

ولما اطمأنت «بنات عرس» وتصورت أنها آمنة ، قصدت في الحال إلى «عشة» الدجاج المجاورة «ليت الكلب» ، ودخلتها واحدة وراءه أخرى . لكنها ما كادت تدخلها حتى انقفل الباب وراءها ، أقفله پينوكيو ليحبسها في الداخل .

ولم يكتفِ الأريجوز بذلك ، بل وضع على الباب حجراً كبيراً ليضمن بقاءه مقفلا .

ثم بدأ ينبح نباحاً عالياً ، كأنّ كلب من كلاب الحراسة الكبيرة : هاو ، هاو ، هاو ! هاو ، هاو ، هاو ، هاو ! هاو ، هاو ، هاو ! .

وسمع الفلاح نباحه فاستيقظ ، وقفز من سريره ، وأمسك «بندقيته» وفتح الشباك قال :

— ما الذي حدث ؟

— اللصوص هنا ؟

— أين هم ؟

— في «عشة» الدجاج .

— سآجيء حالا .

ولم أقل من الوقت الذي تقول فيه مثلا : «عبد العال أفندي» كان الفلاح ، قد وصل إلى «عشة» الفراخ .

وأمسك «بنات عرس» الأربع ، ووضعها في كيس ، وقال فرحاً :

«أخيراً وَقَعْتُنَّ في يدي ، يا لعينات ! بإمكاني أن أعدّبكنّ عذاباً شديداً . لكني سأكتفي بأخذكنّ إلى مالك الضيعة في البلدة المجاورة ، ليذبحكنّ ويسلخ جلودكنّ ثم يطبخكنّ بالصلصة ، ويأكلكنّ كأشكن أرانب لا «بنات عرس» . صحيح أن هذا شرف لا تستأهلنه ، ولكنّ مثل من كبار الناس لا يفعل إلا الأفعال الطيبة الكريمة ! » .

ثم راح إلى پينوكيو ومسح جسمه بيده مداعباً ملاطفاً ، ومادح شجاعته وأمانته وقال فيما قال له : «وكيف اكتشفتَ مؤامرة هؤلاء اللصوص اللاعبين ؟ في حين أن ميلامبو ، كلبي المخلص ميلامبو ، لم يتمكن قطّ من معرفة أي شيء ؟ ! » .

كان ممكناً أن يبوح پينوكيو بالحقيقة كاملة ، أعني أنه كان ممكناً أن يحدث الفلاح بما كان بين الكلب وبنات عرس من اتفاق مخجل ، لولا أنه تذكر أن الكلب قد مات ، فقال لنفسه : «وما الفائدة من اتهام الأموات ؟ أفضلُ من هذا تركهم في قبورهم آمنين ! » .

قال الفلاح : «حين ظهرت "بنات عرس" أول مرة ، أنائماً كنت أم مستيقظاً ؟» .

— كنتُ نائماً . لكنهن أيقظنني بكلامهن فيما بينهن . ثم جاءني إحداهن فحيتني وقالت : «إنّ وعدتنا ألا نبيح لتوقيظ الفلاح ،

فإننا نعطيك دجاجة مجهزة تجهيزاً كاملا » . فأنت ترى أن وقاحتهن فاقت كلّ وقاحة ! تصوّر أنهن يعرضن عليّ مثل هذا الاقتراح القبيح المشين ! صحيح أنني « أرجوز » ، وأني لا أخلو من العيوب ، لكنني مع كل عيوبي لا يمكن مطلقاً أن أتفق مع اللصوص ، ولن أقبل أبداً أشياء مسروقة » .

قال الفلاح وهو يربت على ظهره : « مَرْحَى ، مرحى ، يا ولدي ! هذا خُلُقٌ كريم جداً ، مُشرِّفٌ لك غاية التشريف . وإني — رغبة في أن أظهر لك مقدار سروري بفعلك النبيل هذا — سأطلق سراحك فأنت منذ الآن حرٌّ لوجه الله ، تستطيع أن تذهب حيث تشاء ، وأن ترجع إلى البيت متى أردت ! »

٢٣

لما أصبح پينوكيو حرّاً ، انطلق يجري في الحقول ، إلى أن وصل إلى الطريق الكبير ، الذي ينتهي عند بيت الإنسيّة الجميلة .

وقف ينظر يميناً وشمالا ، ويلتفت هنا وهناك . فرأى المكان الذي تمّ فيه ذلك اللقاء المشكوك الشّمس ، بينه وبين الثعلب والقط . كان يرى شجرة البلوط الكبيرة التي عُلّق فيها « تعلّموا جاورها من الأشجار ، لكنه لا ينظر أمامه في نهاية الطريق ليرى البيت الأبيض الصغير ،

الذي لقيَ فيه الطفلة الجميلة ذات الشعر الأزرق ، لم يجده . . . . !

وشعر في نفسه بخوف لا يعرف سببه . فانطلق يجري بأسرع ما يستطيع فوجد نفسه بعد دقائق وسط الحقل ، الذي كان البيت الصغير الأبيض قائماً فيه ذات يوم . لكن البيت الصغير الأبيض لم يكن الآن موجوداً حيث كان يراه ، بل وجد مكانه قطعة من المرمر الأبيض الشفّاف ، منقوشاً عليها :

هُنا ترقُد
الطفلة ذات الشعر الأزرق
التي ماتت من شدة الحزن
بعد أن هجرها أخوها الصغير
پينوكيو

واترك لكم يا إخواني أن تتصوروا الإحساسات المؤلمة التي قامت في نفس پينوكيو عند ما قرأ — بصعوبة — تلك الكلمات القليلة ! ! ! .

لقد وقع على الأرض ، وراح يُقبّل قطعة المرمر الباردة ألف مرة ، وأجهش بالعويل والبكاء ، فذرّف دموعاً تملأ حِراباً بأكمله . لقد بقي طول الليل يبكي . فلما طلع الفجر كان لا يزال في مكانه يبكي ، مع أنه قد ذرف دموعه ولم يبق له منها بعينيه شيء ! وكان يناوّه

ويصرخ صراخاً يُجلْجِل فى أرجاء الحقل والتِّلال المجاورة. وكان فى أثناء بكائه يقول : « أيتها الإنسية العزيزة ، قولى لى لماذا متِّ ! لماذا لم أمُتْ أنا ، أنا الشقى التعس ، بدلا منك ، أنت الطيبة الكريمة ؟ وأبى المسكين ، أين هو ؟ قولى لى : أيها الإنسية العزيزة ، أين أجد أبى ، لأننى أريد أن أبقى معه ما بقِىَ من حياتى ، ولن أتركه بعد اليوم أبداً ، أبداً ! آ . . . . » ، يأيتها الإنسية العزيزة ، قولى لى : إن هذا غير صحيح ، وإنك لم تموتى ! عُودى إلى الحياة ، ارجعى كما كنت من قبل ، إن كنت تحبيننى حقاً ، إن كنت تحبِّين أخاك الصغير

بينوكيو ! ألا يُحزنُك أن تريينى الآن هنا وحيداً ، بعد أن هجرنى كل الذين يحبوننى ؟ إن القتلة واللصوص إن لقونى فإنهم هذه المرة سيقتلوننى . وحينئذ أموت حقاً ، أموت فعلا ، أموت موتاً لا شك فيه ! ما الذى يمكننى أن أفعله الآن فى هذه الدنيا ، بعد أن أصبحتُ فيها وحيداً ؟ من ذا الذى سيعطينى بعد اليوم — وقد أصبحتُ وحيداً — شيئاً أكله ؟ وأين أنام ؟ ومن ذا الذى سوف يصنع لى سترة جديدة ؟ آ . . . . ، إنى أفضّل ألف مرة أن أموت على أن أعيش فى هذه الدنيا وحيداً ! إننى أيضاً أريد أن أموت ! نعم ، أريد أن أموت ! آ . . . . . ! ! هوه . . . هوه . . . هوه . . . . هوه . . . . ! ! » .

ثم اشتدّ به اليأس وزاد ، فأراد أن يقطع شعره ، فلما وضع يده على رأسه ليمسك شعره لم يجد شعراً يمسكه ، لأن شعره — كما تعرفون — كان من الخشب ، فلم يتمكن لهذا السبب من أن يُدخِل أصابعه فيه كما أراد !

وفى هذه اللحظة مرّتْ به حمامة طائرة ، حمامة كبيرة جداً جداً ، كانت تطير على ارتفاع منه . فلما رأته ، توقفت ، فى الهواء قليلا ، وقد فردتْ جناحيها ، وصاحت به قائلة :

« قل لى ، أيها الطفل ، ماذا تفعل هنا ؟ » .

فأدار بينوكيو وجهه إلى أعلى ، إلى الجهة التى يجىء منها الصوت ، فلما رأى الحمامة الكبيرة التى تكلمه ، مسح عينيه بكمّ سترته وقال :

« ألا ترين ؟ إننى أبكى ! »

قالت الحمامة : « قل لى ، هل تعرف بين ملائك الذين يلعبون معك أرجوزاً اسمه پينوكيو ؟ » .

فقفز پينوكيو واقفاً على رجليه ، وقال : « پينوكيو ؟ هل تقولين پينوكيو ؟ أنا پينوكيو ! » .

فلما سمعت الحمامة هذا ، هبطت إلى الأرض مُسرعة .

لقد كانت أكبر حجماً من الديك الرومى !

وسألت « الأرجوز » : « وهل تعرف حيتُو ؟ » .

ـ هل أعرفه ؟ ! إنه أبى المسكين ! هل كلّمتك عنّى ؟ هل يمكنك أن تأخذينى إليه ؟ ألا يزال حيًّا ؟ قولى لى بسرعة ، من فضلك ، بالله عليك ، أيتها الحمامة العزيزة ، ألا يزالُ حيًّا ؟ » .

ـ لقد تركتُه من نحو أيام ثلاثة ، عند شاطئ البحر .

ـ وماذا كان يعمل هناك ؟

ـ كان يصنع قارباً صغيراً يعبر به البحر . مسكين هذا الرجل ! إنه منذ أكثر من أربعة أشهر يجوب الأرض باحثاً عنك . فلما لم يجدك قرر أن يبحث عنك وراء البحار .

قال پينوكيو بلهفة : « وأين شاطئ البحر هذا ؟ هل هو بعيد ؟ » .

ـ يبعد عن هذا المكان بنحو خمسمائة ميل .

ـ خمسمائة ميل ؟! آه ، أيتها الحمامة العزيزة ، لو أن لى مثل جناحيك ! .

ـ إذ كنتِ تريدين الذهاب إلى أبيك فإنى أحملك .

ـ كيف ؟ .

ـ على ظهرى . هل وزنك ثقيل ؟

ـ ثقيل ؟ ! لا ، لا ، إننى أخفُّ من الريشة .

وقفز پينوكيو على ظهر الحمامة ، وترك رجليه تتدلّيان على جانبيها ، كأنه فارس يركب حصاناً ، وصاح فرحاً : « اركُضى ، اركضى ، أيها الحصان الصغير ! أريد أن أرى أبى بسرعة » .

وطارت الحمامة . وبعد دقائق كانت تُحلّقُ عالية فى السماء ، على أعظم ارتفاع ممكن ، هناك يقرب السحاب ، حتى كادت تلمسه بجناحيها ! فلما رأى پينوكيو نفسه على هذا الارتفاع العظيم ، دُهش وتعجّب ، فلما نظر إلى أسفل يريد أن يرى سطح الأرض ومَن عليها ، داخ ودار رأسُه ، وانتابه الخوف ، فلفّ ذراعيه وشدّهما على رقبة حصانه ذى الريش ، لكيلا يقع من هذا العلوّ الشاهق !

وبقيا طائرين طول النهار ، فلما اقترب المساء قالت الحمامة :

ـ إنى أحسّ بالعطش الشديد .

ـ وأنا بالجوع الشديد .

ـ إذن نقف هنا قليلا ، فى بُرج الحمام هذا . فإذا استرحنا ،

عاوّدنا رحلتنا ، لنصل إلى شاطئ البحر عند شروق الشمس مُبكرَيْن .

ودخلا برج حمام مهجور ، وجدا فيه حوض ماء ، وسلة ملأى بالحبّ .

وكان من عادة پينوكيو ألا يأكل الحبّ أبداً . كان يقول إنه يقلب له معدته ! لكنه في تلك الليلة أكل الحبّ بشراهة ولَهَم شديدين ، فلما فرغا من أكله قال للحمامة :

— لم أكن أظن قطُّ أن الحبّ لذيذُ الطعم !

ولم تُطيل الحمامة وصاحبها الانتظار ، بل أسرعا في الرحيل ، وما زالا طائرين حتى وصلا ، عند شروق الشمس ، إلى شاطئ البحر .

وهبطت الحمامة إلى الأرض ، وبقيتْ دقيقة حتى ينزل پينوكيو عنها ثم طارت في الحال .

ورأى پينوكيو الشاطئ مزدحماً بالناس ، يتصيحون ويتكلمون ويُشيرون إلى البحر البعيد . فاقترب من امرأة عجوز وقال لها : « ماذا حدث يا سيدتي ، ولماذا يزدحم الناس بجوار البحر ؟ » .

قالت العجوز : « إن أباً مسكيناً فقد ابنه ، وقد ركب البحر في قارب صغير ليذهب إلى البلاد البعيدة ، وراء البحار ، للبحث عنه . لكن الأمواج العالية سقلب القارب ، أو هي قلبتْه فعلا » .

— وأين القارب ؟

— هناك ، أمامك ، في اتجاه إصبعي !

وأشارت المرأة بإصبعها إلى قارب صغير في داخل البحر البعيد ، كأنه قشرة الجوزة ، وفيه رجل صغير الحجم جداً . فصاح پينوكيو : « إنه أبي ! » .

وما ليث القارب الصغير أن غالبته الأمواج فقلبته فاختفى ، ثم عاد فظهر على سطح الماء . فوقف پينوكيو فوق صخرة ، ونادى أباه باسمه مرة ومرة ومرة ، وأشار له بيديه ولوّح بمنديله .

كان جيپتو بعيداً جداً في داخل البحر ، ولكن يَلُوح أنه مع ذلك قد عرف ابنه ، لأنه رفع قبعته ولوّح بها ، وصار يشير هو أيضاً بيديه كأنه يسرّه أن يعود إلى البر . لكن البحر العالي الهائج ، لم يمكنه من استعمال مجدافيْه ، ولم يلبث أن حاءته موجة ضخمة كأنها

الجبل الشاهق ، فلطمته لطمة قوية ، اختفى بعدها القارب بمن فيه !

وانتظر الناس المُحْتَشِدُون عند الشاطئ ظهورَه فوق الماء مرة ثانية ، لكن انتظارَهم طال وطال ، ولم يظهر الرجل ولا قاربه !

قال الصيادون الواقفون هناك : «مسكين ! » ، ثم تَمْتَمُوا بكلمات قليلة ، وطلبوا له من الله الرحمة !

وفجأةً سمع الناس صرخة عالية يائسة ، فلما التفتوا ، رأوا صبياً يرمى نفسه فى البحر من فوق صخرة عالية ويقول : « أبى ، أبى ، ! سوف أنقذ أبى ! » .

استطاع پينوكيو ، وهو كما تعلمون مصنوع من الخشب ، أن يَطْفُوَ بسهولة فوق سطح الماء ، وأن يسبح كأنه السمكة . ونظر له الناس المجتمعون ، فرأوه يَنْطَلِق فى الماء كالسهم ، يغُوصُ مرة فوق سطح الماء ، ثم لا يلبث الموجُ أن يلطمه فيختفى ، ثم يعود فيظهر ، وهكذا . وبعد قليل رأوه بعيداً ، بعيداً ، بعيداً ، بعيداً ، حتى أصبحوا لا يرون منه شيئاً .

قال الصيادون الواقفون هناك : « مسكين ! » . ثم تمتموا بكلمات قليلة ، وطلبوا له من الله الرحمة !

وانصرف الناس عائدين .

بقى پينوكيو يسبح طول الليل ، لا يُشَجِّعُه على ذلك غير الأمل فى أن يصل فى اللحظة المناسبة لإنقاذ أبيه المسكين .

كان المطر ينزل على رأسه كالسَّيْل ، وكانت عواصف الثلج تكاد تجمد وجهه بتجمُّده ، حتى أوشك أن يصبح كقطعة الرخام الصُّلبة . وكان البرق كثيراً ، والرعد عالياً مدوياً ، يصمّ أذنيه ، ويثير الخوف فى نفسه !

فلما اقترب الصُّبح ، رأى على البُعد أرضاً يابسة : جزيرة فى وسط الماء ، أعاد إليه منظرُها الأمل قوياً ، وشجّعه على بذل الجهد للوصول إلى شاطئها . ولكن ذهبت جهوده عبثاً ، فإن الأمواج العالية كالجبال كانت ترميه إلى الوراء ، كأنه قطعة من القش لا وزن لها .

وأخيراً ، وبعد أن يئس ، وفكر فى أن يَسْتَسْلِمَ لقضاء الله ، جاءته موجة قوية ضخمة ، فلطمته لطمة شديدة ، ورمته فوق الجزيرة .

اصطدم پينوكيو بالأرض صدمة مؤلمة ، كادتْ تُهَشِّمُ عظامَه ، وقلقلت ضلوعه ومفاصله . ولكنه مع ذلك كان مسروراً بالنجاة ، فقال : « الحمد لله الذى أنجانى من الكرب والخوف والمخاطر ! أفّ ! لقد كانت ليلة ليلاء ، لم أكن أتصور قط أن أخرج منها

سليما ! لك الحمد يا ستار يا رب ! » .

وخلع ثيابه ونشرها لتجف في شمس الصباح . والتفت في كل ناحية واتجاه لعله يرى في البحر الواسع قاربا صغيرا فيه رجل . وبقي ساعة ينظر ، وينظر ، وينظر ، لكنه لم ير غير الماء والسماء ، وشراع بعض السفن البعيدة تبدو كأنها الذبابات الصغير .

قال الأرجوز : « لو أني أعرف اسم هذه الجزيرة ! وهل يسكنها ناس مؤدبون لا يعلقون الأولاد بالحبال في الشجر ؟ هل أحد هنا أحداً أستطيع أن أعرف منه كل ما أريد معرفته ؟ » .

وأحس أنه وحيد في بلد بعيد مجهول لا يسكنه أحد . وأحزنه شعوره بالوحدة ، حتى كاد يبكي ، لولا أن رأس سمكة كبيرة جدا ، ظهر فوق سطح الماء بجوار الشاطىء ، وكانت السمكة تسبح في اتجاه البر ، وكأنها تريد أن تصل إليه . فلما اقتربت من الشاطىء ، دارت وأرادت أن ترجع من حيث جاءت . لكن بينوكيو أسرع فناداها وقال :

— يا حضرة السمكة المؤدبة ، هل تسمحين لي بأن أسألك سؤالا ؟ »

قالت السمكة (وكانت في الحقيقة حوتا كبيرا مؤدبا مهذبا ، لا يجد الإنسان في جميع البحار مثيلا له في أدبه وكريم أخلاقه) :

— بل سؤالين .

— هل تسمحين لي (فإنه كان

يظن الحوت سمكة) بأن أعرف اسم هذه الجزيرة ، وهل فيها ما كان أستطيع أن أجد فيه شيئا آكله ، من غير أن يأكلني أحد ؟

قال الحوت : « أما الجزيرة فلا اسم لها ! وأما الدكان فتستطيع أن تأكل فيه شيئا من غير أن يأكلك أحد ، فهذا طبيعي ؟ » .

— وأين هذا الدكان ؟

— قريب منك .

— في أي ناحية ؟ وأي طريق أسلك ؟

— امش في هذا الطريق الصغير الذي إلى شمالك ، فستجد الدكان بعد قليل .

— شكرا ، شكرا ! أريد أن أسألك سؤالا آخر . إنك تسبحين في الماء طول النهار وطول الليل ، فهل رأيت مصادفة في الماء قاربا صغيرا فيه أبي ؟

— ومن أبوك ؟

— إنه أحسن الآباء جميعا في هذه الدنيا ، وأطيبهم قلبا ، في حين أني شر من فيها من الأبناء وأكثرهم عقوقا .

— يمكن أن يكون قد غرق ، بسبب العاصفة الشديدة التي مرت بنا في الليلة الماضية .

— وأبي ؟

— يمكن أن يكون الآن قد أكله « القرش » وحش البحر الكبير ، الذى ينشر الموت والخراب والفزع فى هذه المياه من زمن طويل .

فلما سمع بينوكيو كلام الحوت عن « القرش » وحش البحر الكبير ، ملأ قلبه الخوف الشديد وقال :

— وهل هو كبير جداً جداً ، هذا « القرش » ؟

— كبير ؟!! إنه كبير جداً جداً . إنه أكبر من بيت ذى خمس « طبقات » . فأما فمه فواسع جداً ، وعميق جداً ، بحيث يتسع بسهوله لقطار كبير من قطر سكة الحديد بجميع عرباته !

— يا ساتر يا رب !

أسرع بينوكيو خائفاً إلى ثيابه فجمعها ، ثم التفت إلى الحوت وقال :

— وداعاً يا حضرة السمكة المحترمة ، ولا تؤاخذنى إن أنا أزعجتُك ، واقبلى كل تشكراتى .

ثم راح يجرى فى الطريق الصغير . وكان كلما سمع همساً أو حركة خفيفة أو صوتاً يكاد لا يسمع ، تلفّت وراءه ، خشية أن يرى القرشَ يجرى وراءه ، القرش الفظيع الكبير مثل البيت ذى الطبقات الخمس ، وفى فمه قطار سكة الحديد !

وبعد سائراً نصف ساعة ، وصل بعدها إلى « مدينة النحل الشغال » ، فوجد شوارعها مملوءة ، بأفراد النحل يجرون فيها هنا وهناك مسرعين عاملين وكل منهم له عمل يعمله ، ولا يهتمّ بشىء غيره ، وليس فيها من يجلس

كسلا ، لا يعمل شيئاً ، ولو فتشتَ عنه بمصباح !!

وتحركت عظام بينوكيو الكسلى وقالت له : « آ ... ه ، هذا مكان لا يصلح لى ، إنه بلد لا يمكننى أن أعيش فيه ، فأنا لم أولد لأشتغل ! » .

وكان الأرجوز فى هذا الوقت يحس جوعاً شديداً جداً ، لأنه منذ أربع وعشرين ساعة لم يأكل شيئاً .

ما العمل إذن ؟

لم يكن أمامه إلا إحدى طريقتين للحصول على بعض الأكل : فإما أن يبحث عن عمل يعمله ، أو أن يشحذ ملاليم أو قطعة من الخبز .

لكنه عند ما خطرت بباله فكرة الشحاذة ، خجل خجلا شديداً . فإن أباه كان قد قال له مرة : « إن العجزة والمُتقدّمين فى السن هم وحدهم الذين يحق لهم أن يتسوّلوا ، لأن المساكين فى هذه الدنيا ، المحتاجين إلى العطف والمساعدة ، هم الذين يعجزون عجزاً حقيقياً عن كسب قوتهم بعرق جبينهم ، مثل المتقدمين فى السن والمرضى وذوى العاهات الذين لا يقدرون بسبب ذلك على الشغل . أما غيرهم ، فيجب أن يشتغلوا . فإن رفضوا ذلك وشكوا الجوع ، فيجب أن لا يعطف عليهم أحد ، بل — على العكس — يجب أن يتركهم الناس وشأنهم ! » .

وكان بينوكيو غارقاً فى أفكاره هذه ، حين مرّ به رجل يلهث ويتصبب العرقُ من جبينه ، وكان يجرّ وراءه (بصعوبة شديدة) عربتين محمّلتين فحماً .

فلما نظر إليه بينوكيو ، رأى فى ملامحه علامات الطيبة . فتقدم منه وقال فى صوت واطئ ، وقد خفض عينيه خجلا .

— هل تسمح يا سيدى فتعطينى مليما ، فإنى أكاد أموت من الجوع ؟

قال الفحام : « بل أعطيك أربعة مليمات ، إن أنت ساعدتنى على جر هذا الفحم إلى البيت » .

فقال بينوكيو غاضباً : « عجباً لك ، اصبح لى أن أقول لك إنى لست حماراً ! » .

قال الفحام : « تقول إنك تكاد تموت من الجوع . فعليك أن تأكل إذن قطعتين من كبريائك هذه لسد بهما جوعك الشديد . وحاذر التخمة وسوء الهضم » .

ثم انصرف الرجل .

وجلس بينوكيو وحيداً يكاد الجوع يقتله .

ومضت دقائق ، مر به بعدها بنّاء يحمل « قصعة » من « الأسمنت » فوق كتفه . فتقدم منه بينوكيو وقال فى صوت واطئ ، وقد خفض عينيه خجلا :

— هل تسمح يا سيدى بمليم واحد لوالد يكاد يموت من شدة الجوع ؟

— بكل سرور ! تعال واحمل معى الأسمنت ، وأنا أعطيك بدل المليم خمسة .

— لكن الأسمنت ثقيل ، ولا أريد أن أتعب .

— وهو كذلك ! ما دمت لا تريد أن تتعب فيمكنك أن تسلى جوعك ، وأنا واثق أن هذا الجوع سوف يفيدك إن شاء الله .

ثم انصرف الرجل .

وجلس بينوكيو وحيداً يكاد الجوع الشديد يقتله .

وانقضت ساعة مر به خلالها أكثر من عشرين رجلا . فكان كلما تقدم من واحد منهم طالبا مليماً قال له :

— « ألا تخجل ؟ ! يجب عليك أن تشتغل وتكسب قوتك بعرق جبينك ، بدلا من التسول فى الشوارع » .

وأخيراً ظهرت امرأة عجوز تحمل جرتين من الماء . فتقدم منها بينوكيو ، وقد كاد العطش الشديد يحرقه ، وقال : « يا سيدتى الكريمة ، هل تسمحين لى بجرعة ماء واحدة من جرتيك ؟ » .

فوضعت المرأة الجرتين على الأرض وقالت : « نعم يا ولدى ، اشرب » .

وصار بينوكيو يشرب كأنه الإسفنجة ، حتى كاد الماء يفرغ . فلما امتلأ وارتوى ، مسح فمه بظهر يده وقال : « آ ... ه ، لو كان بإمكانى أن أسد جوعى كذلك ! ! ! » .

فلما سمعت العجوز ذلك — وكانت امرأة طيبة القلب كريمة — قالت :

— « إذا حملت لى إحدى هاتين الجرتين إلى البيت ، أعطيتك قطعة من الخبز كبيرة » .

فنظر بينوكيو إلى الجرة ، وسكت . فقالت المرأة : « وأعطيتك مع

الخبز كعينة من القنبيط » (القرنبيط) بالخل والزيت » .

فنظر بينوكيو إلى الجرة نظرة ثانية ، وبقى ساكتاً . فقالت المرأة : « ثم أعطيك بعد القنبيط قطعة من الكعك الفاخر وكثيراً من الحلوى اللذيذة ! » .

فلما سمع بينوكيو حديث الكعك الفاخر والحلوى اللذيذة ، ذاب عناده كما يذوب السكر فى الماء ، فشدّ نفساً طويلا ، ثم قال فى عزم وحزم : « سهلاً يا سيدتى ، سأحمل لك هذه الجرة إلى البيت » .

وكانت الجرة ثقيلة جداً . ولما لم تكن يدا بينوكيو من القوة بحيث تقدران على حمل الجرة وإمساكها بينهما فترة طويلة ، فقد وضعها على رأسه .

ولما وصلا إلى البيت ، أجلست المرأة العجوز ضيفتها إلى مائدة ، كانت مجهزة من قبل ، ووضعت فوقها أمامه كثيراً من الخبز والقنبيط والكعك والحلوى والفطائر .

وراح بينوكيو يأكل — لا كإنسان — ولكن كحلزون أو خنزير برّىّ ، وكأنما كانت معدته بيتاً خاوياً خالياً ، لم يسكنه أحد من أشهر وأشهر .

وبدأت آلام الجوع تخفّ شيئاً فشيئاً ، حتى هدأت تماماً آخر الأمر . فرفع رأسه لكى يشكر لتلك السيدة كرمها وجميلها .

لكنه ما إن رفع إليها نظره ، حتى صاح مذعوراً :

« أو ... و ... و ... و ... ! » . وبقى جالساً مكانه لا يتحرك كأنه حجر ، فى حين كانت عيناه تُحدّقان فى السيدة ، وكأنهما تريدان الخروج من رأسه . وكان لا يزال ممسكاً فى يده بالشوكة ، ولا يزال فمه مملوءاً بالخبز والقنبيط .

قالت المرأة الطيبة مبتسمة : « ما لك ؟ » .

قال بينوكيو ، وقد كاد يعجز عن الكلام : « مالى ...

مالى .... إنك .... إنك تُشبهين .... تشبهين .... تُذكرينى .... نعم ، نعم .... نفس الصوت .... ونفس العينين .... ونفس الشعر .... ، أنتِ أيضاً شعرُكِ أزرق كشعرها ... إنك تُشبهينها تماماً ... تشبهينها كل الشبه ! أوه أيتها الإنسية العزيزة ، أيتها الإنسية العزيزة ، قولى لى ، هل أنتِ ..؟ هل صحيح أنك ...؟ لا تجعلينى أبكى أكثر مما بكيت ، آه لو علمتِ ! لقد بكيت كثيراً ، كثيراً ، وأنت كثيراً ، كثيراً ! » .

ثم أجهش المسكين بالبكاء ، وفاضت دموعه كأنهار الماء . وركع على ركبتيه ، ورفع ذراعه توسُّلاً إلى تلك السيدة الصغيرة الغامضة .

٢٥

رفضت المرأة ذات الجسم الصغير — أول الأمر — أن تعترف بأنها الإنسية ذات الشعر الأزرق ، ولكنها لما رأت أن بينوكيو قد عرفها ، وأنه لا فائدة من الإنكار والاستمرار فى اللعبة إلى نهايتها ، كفّت عن حقيقة أمرها ، وقالت :

— أيها الأرجوز الشيطان ، كيف عرفتنى ؟ .

— إنى لم أعرفكِ ، بل عرفك قلبى ، لأنه يحبك حبًّا شديداً .

— هل تتذكر ؟ كنتُ طفلة صغيرة حينما تركتنى ، فأصبحت الآن امرأة ، حتى صار بالإمكان أن أكون أمك !

— إنى أفضل ذلك كثيراً . وعلى هذا ، فبدلا من أن أناديك بيا « أختى » العزيزة ، يمكننى أن أناديك بيا « أمّاه » ! لقد تمنيتُ دائماً أن تكونى لى أم ، كغيرى من الأولاد ، لكن قُولى لى ، كيف أمكنك أن تكبرى بهذه السرعة ؟

— هذا سرّ !

— علّمينى هذا السرّ ، فإننى أتمنى أن أكون أكبر قليلا ، إنى فى حياتى كلها لم يتزايد طول على ما يعلو الركبة !

— ليس فى إمكانك أن تكبر !

— ولماذا ؟

— لأنك أرجوز ، والأرجوز لا يكبر أبداً . فالأرجوزات تُولَدُ أرجوزات ، وتعيش أرجوزات ثم تموت أرجوزات .

فصاح بينوكيو وهو يضرب رأسه الخشبى بيديه ، وقال :

— لكننى سئمتُ حياة الأرجوزات سأماً شديداً . إننى لا أريد أن أكون أرجوزاً بعد اليوم . لقد آن الأوان لأن أصبح رجلا ككل الرجال .

— لو أنك كنت تستأهل ذلك ، لأمكنك أن تصبح رجلا .

— وما الذى يجب أن أفعله لكى أستأهل أن أكون رجلا ؟

— تكون ولداً طيباً عاقلا مطيعاً .

— وهل تريدين أن تقولى إنى لستُ طيباً عاقلا ؟

— الأولاد الطيبون مطيعون ، وأنت ....

ـ وأنا لا أطيع قطّ ....

ـ والأولاد الطيبون يحبون المدرسة والتعليم ، والشغل ، وأنت ....

ـ وأنا غبيٌّ متسكّعٌ طول الوقت . . .

ـ والأولاد الطيبون لا يقولون دائماً إلا الصدق . . .

ـ وأنا لا أقول الصدق أبداً . إنني دائماً أكذب . . .

ـ والأولاد الطيبون يذهبون إلى المدرسة ....

ـ والمدرسة تضايقني وتوجع رأسي . لكنني منذ اليوم سأغيّر حالي وأبدّل حياتي .

ـ هل تَعِدُني بذلك ؟

ـ نعم أعدك . إني أريد أن أكون ولداً طيباً ، وأن أصبح عزاء لأبي. أين يمكن أن يكون الآن أبي المسكين ؟!

ـ من يعرف ؟

ـ هل يُسعدُني الحظ يوماً فأراه ؟

ـ أرجو ذلك ، بل أنا واثقة من ذلك !

فشعر پينوكيو بالسعادة تغمرُ قلبه حين سمع من الإنسية هذا الكلام الذي بعث فيه الأمل برؤية أبيه . فأمسك يديها فقبلهما فرحاً وشكراناً . ثم نظر إليها نظرة ملؤها الحب وقال :

ـ قولي يا أماه إنه لم يكن صحيحاً أنك متّ يوماً .

ـ قالت الإنسيةُ مبتسمة :

ـ الظاهر أنه غير صحيح .

ـ آه ، لو عرفت كم حزنتُ وتألمت ، وكم كان قلبي يوجعني وأنا أقرأ ، هنا ترقد .... » .

ـ أعرف ذلك ، وهذا السبب ساعدتك . لقد تألمتَ حقيقة ، فعرفتُ حينئذ أن لكَ قلباً طيباً . وعندما يكون للطفل قلبٌ طيب (ولو كان طفلاً شريراً) فالإمكان أن يأمل الإنسانُ صلاحه يوماً ما . وهذا هو السبب الذي من أجله جئت الآن هنا أبحث عنك . إني سأكون أمك . .

فقفز پينوكيو فرحاً وصفّق بيديه إبتهاجاً وقال :

ـ أيه ، هذا حسن جداً ، حسن جداً جداً ،

ـ إذن فسوف تطيعني دائماً ، وتعمل كلّ ما آمرك به .

ـ نعم ، نعم ، نعم ، بكل تأكيد !

ـ وإذن فستذهب غداً إلى المدرسة ....

فخفّ فرح پينوكيو قليلا .

ـ .... ثم تختار لك مهنة أو حرفة ، كيفما تحب .

فتعقّد وجه پينوكيو . فسألته الإنسية غاضبة ؟

ـ ما الذي تقوله من تحت ضرسك ؟

ـ أقول إنني أرى وقت الذهاب إلى المدرسة قد فات .

ـ لا ، إنه بالتأكيد لم يفت . لا تنس أنّ الإنسان يمكنه ، في كل وقت ، وفي أي وقت ، أن يتعلم ويتهذب ويتربّى ، إذا شاء .

- لكنني لا أريد تعلُّمَ صناعة أو حرفة أو مهنة ....

- ولماذا ؟

- لأنني لا أحب أن أشتغل .

- إن الذين يقولون مثل ما تقول الآن ، ينتهي بهم الحال دائماً إما إلى المستشفى أو إلى السجن . تذكَّر أن الإنسان - سواء وُلِد غنيًّا أم فقيراً - من واجبه أن يجد شيئاً في الحياة يعمله ! يجب عليه أن يشغل نفسه بشيء ووَيْلٌ للذين يضيعون وقتهم كسلاً وتَسكُّعاً . فالكسل مرض مُخيف ، يجب على الإنسان أن يعالج نفسه منه وهو طفل لم يكبر ، وإلا أصبح من الصعب جداً - بل من المستحيل - فيما بعد أن يُشفَى منه .

أثَّرت هذه الكلمات في قلب پينوكيو تأثيراً شديداً . فرفع بصره وقال بسرعة :

- سأذهب إلى المدرسة وأتعلم صناعة ، وسأعمل كل ما تأمرني به ، لأنني سئمتُ حياة الأرجوزات هذه . إني أريد أن أصبح ولداً حقيقياً مهما كلَّفني ذلك . لقد وعدتني بهذا ، أليس كذلك

- نعم وعدتُك . والآن كل شيء مُتوقِّفٌ عليك أنت .

وفي اليوم التالي مباشرة ، ذهب پينوكيو إلى المدرسة .

تصوَّروا ما فعله أولئك الأطفال الملاعين - تلاميذ المدرسة - حين رأوا أرجوزاً يدخل المدرسة ، وقد حمل تحت إبطه كتباً كثيرة ! ! !

لقد أخذوا يضحكون ويضحكون ، كأنهم لا يريدون أبداً أن يرتقُوا من الضحك ، وبدأ أحدُهم . ثم تلاه آخر ، ثم ثالث ورابع ، بدأوا جميعهم يقلدونه ، ويخرجون له ألسنتَهم ، ويخطفون من يده طاقيتَه ، ويشدُّون سترته من الوراء . ثم حاولوا أن يرسموا له بالطباشير تحت أنفه شارباً ضخماً . وأخيراً حاولوا أن يربطوا بيديه ورجليه خيوطاً ليجعلوه يرقص ويلعب كالبهلوانات .

وتظاهر پينوكيو أول الأمر ، أنه غير مُهتمٍّ بما يفعلون ، غير مهتم إلا بعمله المدرسي وحده . لكنه آخر الأمر ، تضايق ، ونفد صبرُه ، فالتفت إلى أرذلهم ، وصاح مُهدِّداً متوعداً وقال :

- حاذِروا ، يا أولاد ، فأنا لم أجئ إلى المدرسة لأضحككم ، إنني أحترم غيري ، وأريد أن تحترموني جميعاً .

- عال ، عال ، أيها الملاجن المهذار ! إنك تتكلم كالكتب تماماً !

ثم زاد ضحكهم وصياحهم ، واقترب منه أكثرهم وقاحة ، وأراد أن

يمسكه من أنفه . لكنه لم يكن من السرعة بحيث يريد ، فإن پينوكيو سبقه فرفسه من تحت المقعد رفسة شديدة أصابت ساقه . فصاح الفلاح صياحاً عالياً . وحك ساقه بيده وهو يقول : « آخ آخ ! أية قدم ناشفة قدمك تلك ! » .

وصاح آخر (بعد أن ضربه پينوكيو فى بطنه ضربة شديدة بمرفقه النحيل) قال : « آخ آخ ، ويدُه ، ما أقساها ! إنها أنشف من قدمه! » .

وبقى پينوكيو على هذه الحال فترة ، يعاكسونه ويضايقونه ، فيردُّ عليهم مضايقاتهم ، ويضربهم ضرباً موجعاً ، ويدافع عن نفسه بمهارة ، حتى أصبح كلُّ التلاميذ يخافونه ويحترمونه . ثم ما لبثوا أن أحبوه جميعاً حباً كثيراً .

حتى المدرس نفسه ، كان يمدحه ، لأنه كان فى أثناء الدرس وبعده منتبهاً ذكياً مجتهداً مؤدباً .

لقد كان دائماً أول من يصل إلى المدرسة فى الصباح ، وآخر من يخرج منها آخر النهار . ولم يكن به عيب إلا أن أصحابه كثيرون ، وأن منهم من اشتهر بالكسل والبلادة وكثرة المدرسة والتعليم . ولذلك كان المدرس يحذِّره كلما رآه . وكذلك الإلهية لم يفتأ تقول له فى يوم من الأيام :

« احذر يا پينوكيو رفاق السوء هؤلاء ، إنهم سيجعلونك يوماً مثلهم ، كسولا بليداً ، تكره الكتب والمدرسة ! بل إنهم قد يسبون لك يوماً كثيراً من المتاعب . فلا تصاحبهم ! » .

فقال پينوكيو : « لا تخافى يا أماه ، لا تخافى ! » . ثم هزّ كتفيه ، ولمس بيده جبهته كأنما يريد أن يقول : نعم ، معها حق ! إن كلامها فيه كثير من الحق » .

وحدث ذات صباح ، بينما كان فى طريقه إلى المدرسة أن قابله بعض زملائه ، فقالوا له :

— هل بلغتك الأخبارُ العجيبة ؟

— أيَّةُ أخبار ؟

— ألم تسمع أن فى البحر قرشاً كبيراً جداً جداً كالجبل ؟

— وهل هذا معقول ؟ لا أظن إلا أنه نفس القرش الذى سمعتُ الناس يتكلمون عنه فى نفس الليلة التى غرق فيها أبى المسكين .

— إننا ذاهبون إلى شاطئ البحر كيما نراه . هل تحب معنا ؟

— لا ، إنى ذاهبٌ إلى المدرسة .

— ولماذا كل ذلك الاهتمام بالمدرسة ؟ إنك تستطيع أن تذهب إليها غداً ، وبعد غد ، وبعد بعد غد . ثم ماذا تخسر إن ضاع علينا درس وماذا تكسب إن زاد علينا درس ؟ سنظل مع ذلك كما نحن الآن ، أغبياء .

— ولكن ، ماذا يقول المدرس إن أنا تغيبتُ عن المدرسة ؟

— أوه ، دَعِ المدرس يقول ما يشاء . إنه يتناول مرتبه كل شهر ليجد فينا عيوباً فى كل لحظة ، سواء ذهبنا للمدرسة أم لم نذهب !

— وأمى ؟ !

— أوه ، ومن ذا الذى سيخبرها بهذا ؟ إنها لن تعرف ذلك أبداً .

— أنا أعرف ما سأفعله . إن عندى أسباباً خاصة تدعونى لرؤية القرش . ومع ذلك فلن أذهب لرؤيته الآن ! بل سأذهب إليه بعد فراغى من المدرسة .

— أيها المسكين الأبله ، هل تحسب أن حكة كبيرة بهذا الحجم ، تنتظر إلى آخر النهار ، حتى تفرغ حضرتك من يومك المدرسى ، لتُشرِّفها بزيارتك ؟

— وكم من الوقت يستغرق ذهابنا إلى الشاطئ ؟

— ساعة فى الذهاب ومثلها فى الرجوع ، لا أكثر .

— إذن فهيا بنا . ومن رأيى أن نجرى ، لنرى أينا يسبق أصحابه .

وجرى هؤلاء الشياطين من وسط الحقول ، بكتبهم وألواحهم وكراساتهم وأقلامهم .

كان پينوكيو يجرى وكأنما لقد مَيْه جناحان ، فتمكّن فى لحظات من سَبْقهم جميعاً . وكان من لحظة لأخرى ، يلتفت وراءه ليُخرج لسانه لزملائه المتأخرين عنه . فلما رأى التعب قد أنهكهم وأنهم أخذوا يتهاوَنون حتى تدلّت ألسنتهم ، وغطاهم الغبار ، ضحك من كل قلبه .

لقد كان المسكين فى تلك اللحظة يجهل المتاعب والمخاوف ، بل الكوارث والمصائب ، التى كانت تنتظره ، لتنزل به شديدة قاسية . . .

لما وصل پينوكيو مع أصحابه إلى شاطئ البحر ، تلفت حوله بسرعة باحثاً عن القرش ، لكنه لم يره ! لقد كان البحر هادئاً تماماً كأنه مرآة عظيمة .

والتفت الأرجوز إلى زملائه وقال : « أين هو ذلك القرش ؟ » .

فضحكوا جميعاً مُقهقهين بصوت عالٍ . وقال أحدهم : « ربما ذهب ليتناول فطوره » .

وقال آخر : « أو أنه ذهب ليستريح قليلا فى فراشه » .

ففهم پينوكيو من إجاباتهم البَلْهاء ، وضحكهم السخيف ، أن الأمر كله كان مزاحاً ، وأنهم كذبوا عليه . فغضب غضباً شديداً وقال محتدّاً :

— « والآن ؟ هل كان لكم غرض من هذه الحكاية التى اخترعتموها : حكاية القرش ؟ »

قالوا جميعاً فى صوت واحد : « نعم ، بالتأكيد ! » .

— وما غرضكم هذا ؟

— أردنا أن تهرب من المدرسة وتجىء معنا . ألا تخجل من مُواظبتك وانتظامك كل يوم واجتهادك ؟ ألا تخجل من استذكارك دروسك بهذه العناية الشديدة ؟

– وما شأنكم أنتم واستاذ كارلو دروسي واجتهادي ؟

– بل هو شأننا بالتأكيد، لأنك بهذا تعيقنا من المدرس والمدرسة موقفاً محجلا .

– والسبب ؟

– السبب أن التلاميذ المجتهدين الذين يستذكرون دروسهم ، يجعلون موقف أمثالنا الذين لا يستذكرون موقفاً محجلا. ولن نقبل نحن أن تُحجلنا أنت فنحن أيضاً لنا كبرياء وعندنا عزّة .

– وما الذي يمكنني إذن أن أفعله من أجلكم ؟

– شيء واحد بسيط جداً: أن تكرّه المدرسة والمدرس والدروس جميعاً ، هؤلاء الثلاثة أعظم أعدائنا .

– وافرضوا أني أفضل أن استمر في اجتهادي .

– إذن نقطع من اليوم علاقتنا بك ، ثم لننتهز بعد ذلك أول فرصة لنتصفّى حسابنا معك . فهز پينوكيو رأسه وقال :

– صحيح ؟ ! إنكم تضحكونني !!!

فمشى نحوه واحد من الأولاد الكبار وقال :

– كو ... كو ... !

فصاح أكثرهم جرأة وقال : «إذن فسنحملك "كو ... كو ... !" حتماً على الحساب ، واحتفظ بها لعشائك ! » . وإذ قال هذا لطمه على رأسه .

وطبعاً لا يمكن أن ننتظر من پينوكيو أن يسكت على مثل هذا ، فقد ردّ اللطمة بأشدّ منها ، وما لبثت المعركة أن حميت واشتدت واشترك فيها جميعاً ، وأصبح الأمر بينهم هجوماً من ناحية ، وهجوماً مضاداً من الناحية الأخرى .

كان پينوكيو وحيداً ، ولكنه دافع عن نفسه دفاع الأبطال . وكانت ذراعا الخشبتان تعملان بسرعة فائقة ، حتى اضطرّ أعداؤه جميعاً إلى الرجوع والابتعاد عنه . فإن هاتين القدمين كانتا إن لمستا من أعدائه مكاناً ، تركتا فيه في الحال علامة زرقاء سوداء ، وآلاماً ليس من السهل نسيانها . . . !

وغضب الأولاد بعد أن عجزوا عن إصابته بسوء ، بل عن الاقتراب منه ، فأخذوا يرمونه بكلّ ما تصل إليه أيديهم من أشياء ، لقد فكوا رباط كتبهم المدرسية وبدأوا يرمونه بها ، الواحد بعد الآخر : رموه بكتب الحساب والمطالعة والقواعد وغير ذلك . لكن عينيْ پينوكيو الحادتين ، كانتا ترقبان كلّ شيء ، فكان يتحرك بسرعة من مكان إلى مكان ، وأمكنه بذلك أن يتجنّب القذائف ، فكانت الكتبُ تتطاير من فوق رأسه دون أن تصيبه ، ثم تسقط في البحر .

ثم ماذا تظنّون الأصحاب قد فعلت بهذه الكتب؟ إنها عندما رأتها تتساقط عليها في الماء حسبتها شيئاً يؤكل . فجاءت إلى سطح الماء قرب رمال الشاطئ لتلتهمها ، ولكنها ما إن ذاقت طعم صفحة أو

صفحتين ، حتى بعضها مشمئزة ، وقد تعقدت ملامحها ، وكأنها تقول : « ما هذا ؟ لقد تعودنا طعاماً أفضل من هذا وأشهى ! » .

وكانت المعركة تزداد شدة حين خرج من الماء « أبو جلمبو » كبير ، يزحف على أقدامه الكثيرة ، وصاح في المتعاركين بصوت عال كأنه صوت الثعبر ، قال : « ما هذا القتال أيها الملاعين ؟ كفى هراكاً يا شياطين . إن عراك التلاميذ ينتهي دائماً بشر : فلا بد أن يجرح البعض أو يُصاب بسوء ! كفى هراكاً ، كفى ، كفى ! » .

مسكين : « أبو جلمبو » الكبير ! لقد راحت صيحته وذهب كلامه مع الريح ، كأنه كان يكلم الهواء ! ! بل لقد صاح به ذلك « الشيطان » پينوكيو قال : « أقفل فمك يا أبا جلمبو يا كريه ! ثم أنصحك أن تتناول حبوباً للحلق لتحسين صوتك القبيح ، وانشق من البرد الذي يخلقك . اذهبْ في الحال إلى فراشك وتناول مغلي الياسمين ، وهُمْ ! » .

قذف الأولاد پينوكيو بكل ما كان معهم من كتب وأدوات مدرسية حتى لم يبق معهم منها شيء . لكنهم ما لبثوا أن رأوْا على الأرض كتبَ پينوكيو . فأسرعوا إليها ، وفي أقل من لمح البصر ، كانوا قد أمسكوها ، وبدأوا يرمونه بها ، الواحد بعد الآخر .

وكان بين كتب پينوكيو هذه كتابٌ للحساب كبير الثقل ، مغلفٌ بغلاف متين ذي « كعب » من الجلد السميك القوي .

لقد سدّد أحد أولئك الشياطين هذا الكتاب الثقيل إلى رأس پينوكيو ،

فلما اطمأن إلى أن الإصابة محكمة لا شكّ فيها ، قذف الكتاب ، وتركه طائراً فى الهواء .

وبقى الكتابُ طائراً فى الهواء إلى رأس بينوكيو ، حتى إذا أوشك أن يُصيبه ، مال بينوكيو برأسه قليلا ، فلم يُصِبْهُ الكتاب ، بل أصاب — بدلا منه — تلميذاً آخر كان واقفاً وراءه ، وأصابه فى رأسه إصابةً شديدة ، لم يلبث المسكين بعدها أن ابيضّ لونُه حتى أصبح كالشمع ، وصرخ صرخة عالية من شدة الألم « آ . . . يّ ! ساعدينى يا أماه ! إننى أموت ! آ . . . يّ ! » ثم سقط على الأرض يابساً كالحجر .

ولمّا رأى الأطفال هذا المنظر ، هربوا مُنْتَشِرين .

هربوا جميعاً ما عدا بينوكيو . فقد بقى واقفاً مكانه ، يكاد الخوف والأسف يقتلانه . ثم ما لبث أن جرى إلى البحر قبلّ منديله ، وعاد فوضعه على صدغ الولد المسكين ، فى حين كان هو يبكى بكاء شديداً مرّاً ، وينادى باسمه ويقول :

« أوجين ! أوجين ! أيها المسكين أوجين ! افتح عينيك وانظر إلىّ ! لماذا لا تجيب يا أوجين ؟ بالله عليك إلا أجبْتَنى ! إننى لم أُصِبْك . لست أنا الذى أصابك . صدقنى فأنا برىء من ذلك . افتح عينيك يا أوجين ، والامت أنا من الحزن عليك . واحسْرتاه ! واحسرتاه ! آه ، لو أنى متُّ قبل هذا ! كيف يمكننى الآن أن أرجع إلى البيت ؟ ! كيف أجد من الشجاعة ما يكفى للرجوع إلى أبى ؟ ما الذى يحدُث لى

حينئذ ؟ وأين أهرب ؟ أين أختفى ؟ كان الأفضل لى ألف مرة لو أننى ذهبت إلى المدرسة ! إذن لما وقعتُ فيما أنا فيه الآن . لماذا استمعتُ إلى رفقائى الفاسدين ؟ إنهم سبب مصائبى ! لقد قال لى المدرس ذلك ، وقالته لى أمى كذلك . لقد قالت : وحاذِرْ زُملاء السوء والرفاق الفاسدين ! » . لكننى عنيد ورأسى ناشف ! إننى أستمع لكل ما يقولون ، وأفعل كل ما أريد ! ثم أدفعُ ثمن ذلك غالياً . هذا شأنى منذ وُلدْتُ ! لم أكن يوماً طيباً أو عاقلاً . آه ، يا الله ، يا الله ! ما الذى سيحدث لى ؟ » .

وبقى بينوكيو على هذه الحال ساعة يبكى ويتألم ، ويضرب رأسه وينادى صاحبَه : « أوجين ، أوجين ! » ، حتى سمع وراءه وقع أقدام تقترب .

فلما رفع رأسه ونظر وراءه ، رأى شرطيين يمشيان نحوه . فلما اقتربا منه قالا : « ماذا تصنع هنا ، ولماذا ترقد على الأرض ؟ ومن هذا الذى معك ؟ وما باله ؟ » .

— هو زميلى بالمدرسة ، وكنت أساعده .

— وماذا جرى له ؟ هل أصابه مكروه ؟

— أظن ذلك !

فمال أحد الرجلين على أوجين وفحصه ثم قال :

— وأنا أيضاً أظن ذلك ! لقد جُرِح فى صدغه . فمن الذى فعل هذا ؟

فعقد الخوفُ لسان بينوكيو ، لكنه مع ذلك قال : مُتَمْتِماً : « لستُ أنا »

وظل يتنفس بصعوبة شديدة .

– إذن منّي ، إن لم تكن أنت ؟

– لست أنا .

– وكيف أصبت ؟

– أصابه هذا الكتاب برأسه . والظاهر أن اللطمة كانت شديدة .

وأمسك بينوكيو في يده كتاب الحساب المغلف بالجلد السميك القوي ، وأراه للشرطيين فقالا : « وكتاب من هذا ؟ » .

– كتابي أنا .

– هذا يكفي ، إننا لا نريد أكثر من هذا . قم بسرعة ، وتعال معنا .

– لكنّي ...

– تعال معنا .

– لكنني بريء ...

– تعال معنا .

ثم نادى الشرطيّان بعض الصيادين الموجودين في أحد القوارب القريبة من الشاطئ ، وقالا لهم : « نترك معكم هذا الغلام المجروح . خذوه إلى البيت وابذلوا له من العناية ما ترون ، حتى نرجع إليكم غداً » .

ثم التفتا إلى بينوكيو وقالا : « امشِ معنا ، وامشِ بسرعة ، وإلا سامت عاقبتك ! » .

فمشى بينوكيو بينهما وكأنه يحلم أحلاماً مُفزعة مخيفة . لقد كان

يائساً خجلاً أشد الخجل . وكانت عيناه ترى الأشياء مزدوجة ، ورجلاه ترتجفان تحته ، ولا تقويان على حمله ، ولسانه معقوداً ملصوقاً بسقف فمه ، لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة .

ومرّت بخاطره فكرةٌ القبض لها قلبه ، وكأنما قد اخترقه سهم مسموم . تلك الفكرة هي أنه سوف يمر الآن ببيت الإنسية ، ومن تحت نافذتها ، ماشياً بين شرطيين !

آه لو أنه مات قبل هذا !

واقتربوا من القرية . وإذ كانوا على أبوابها ، هبّت عليهم ريح عاصفة شديدة اشتدت كل شيء من مكانه ، حتى طاقية بينوكيو انتزعتها من رأسه ، وأطارتها بعيداً ، بعيداً ، نحو عشر خطوات أو عشرين .

قال بينوكيو للشرطيين : « هل تسمحان لي بأن أذهب إلى طاقيتي فألتقطها ؟ » :

– نعم ، اذهبْ وأسرعْ ! .

فذهب بينوكيو إلى طاقيته والتقطها .

لكنه بدلاً من أن يعود للشرطيين ، وضع الطاقية بين أسنانه ، وانطلق يجري بكل قوته نحو البحر كالسهم .

ورأى الشرطيان أنّ ليس من السهل عليهما أن يلحقا به . فأمرا كلباً ضخماً مخيفاً بأن يجري وراءه ليمسكه ، كلباً من كلاب البوليس الماهرة

المشهورة بالجرى السريع ، بل لقد ربح هذا الكلب الجائزة الأولى فى سباق كبير أقيم ذات يوم بملعب المدينة .

انطلق الكلب يجرى وراء پينوكيو . وظلّ يجرى ، وپينوكيو يجرى ، ويجرى وپينوكيو يجرى أمامه ، ويجرى وپينوكيو يجرى أمامه .

وأطلّ الناس من النوافذ ليروا هذا السباق العجيب ، بعد أن سمعوا صراخ الشرطيين . لكنهم لم يروا شيئاً ، ذلك لأن الغبار الذى أثاره پينوكيو والكلب الذى يتبعه ، حجبهما تماماً عن الأنظار .

٢٨

مرت بپينوكيو فى أثناء السباق لحظة أحسّ فيها أنه ضائع !

فقد كاد « اليدورو » (وهو اسم الكلب) يلحق به ، حتى كان يسمع أنفاسه وراءه مباشرة ، بل إنه كان يحسّ حرارة هذه الأنفاس الساخنة تهب على قفاه !

لكن پينوكيو كان قد اقترب — لحسن حظه — من شاطئ البحر ، لا يبعده عنه إلا خطوات .

فلما وصل إلى الماء قفز قفزة عظيمة — كأنه الضفدعة — فزل فى الماء بعيداً عن الشاطئ !

كان الواجب أن يقف اليدورو عن الجرى بعد ذلك ، لولا أنه كان يجرى بسرعة هائلة عظيمة دفعته إلى الماء دفعاً ! ولما لم يكن المسكين قادراً على السباحة ، فقد راح يضرب الماء بيديه وقدميه ، ويطبّش فى الماء يائساً ، محاولاً أن يحتفظ بأنفه فوق سطح الماء . لكنه كان كلما بذل جهداً ، زاد نزولا تحت سطح الماء . ثم عاد فبذل جهداً جديداً تمكن بفضله لحظة أن يرفع أنفه فوق سطح الماء قليلا . فلما رأى پينوكيو وهو فى هذه الحال الشديدة ، صاح به قائلا : « إلى أغرق يا پينوكيو ! إلى أغرق ! » .

وكان پينوكيو قد ابتعد عنه مسافة كبيرة ، وأصبح آمناً من كل خطر ، فأجابه بقوله : « إذن فاغرق ! ما الذى يمنعك ؟ » .

— ساعدنى يا پينوكيو . أنقذ حياتى وإلا غرقتُ ! .

وكان پينوكيو كما تعلمون يحمل بين جنبيه قلباً طيباً كريماً ، فلما سمع صيحات الكلب اليائسة رقّ له قليلا فقال له :

— إنّ أنا أنقذتُ حياتك ، فهل تعدنى بألا تضايقنى بعد ذلك أبداً ، أو تجرى ورائى بعد اليوم مهما حدث ؟

— نعم أعدك ، أعدك ! لكن أسرعْ بالله عليك ، أسرع وإلا

غرقت ! لم يبق لي إلا دقيقة واحدة ، بل نصف دقيقة ، بل ربع دقيقة لا أكثر ، آ ... !

وتردد بينوكيو قليلا . ثم تذكر أن أباه كان يوصيه دائماً بفعل الخير مهما كانت الظروف ، وأن فاعل الخير ينال دائماً جزاء إحسانه حسنات .

فسبح في اتجاه إلى أليدورو ، وأمسكه من ذيله بيديه ، وشده إلى الأرض سالماً مُعافى .

عجز الكلبُ المسكين عن الوقوف قائماً على قوائمه ، فإن ما شربه من ماء البحر المالح نفخ بطنه حتى جعله ككرة المطاط المنفخة (البلون) .

ومع ذلك فقد كان بينوكيو يشك في إخلاصه ويبدي كلامه وأفعاله ، ولهذا فلم يكد يتركه على الرمل الناشف ، حتى رجع إلى البحر مسرعاً فرمى نفسه في الماء ، وسبح مبتعداً عن الشاطئ ، وصاح بصاحبه الكلب وقال :

— وداعاً يا أليدورو ! وداعاً ! أرجو لك رحلة طيبة ، وأبلغ سلامي إلى الأهل والأصحاب .

— وداعاً يا بينوكيو ، شكراً لك ألف شكر ، لقد أنقذت حياتي وأنجيتني من الموت . وهو معروف لن أنساه . فإن احتجت إليّ يوماً يا بينوكيو فلن أخذلك !

استمر بينوكيو يسبح ، لكنه مع ذلك ، بقي قريباً من الشاطئ ، حتى رأى أخيراً أنه وصل إلى مكان آمن . وإذ نظر إلى البر رأى في الصخر كهفاً يخرج منه دخان كثيف ، يعلو في الجو كأنه عمود أسود كبير .

فقال لنفسه : « لابد أن بهذا الكهف ناراً . حسن جداً جداً . إني أستطيع إذن أن أنشف ثيابي وأدفئ نفسي .... ثم ... ثم نرى بعد ذلك ما يكون ! »

وإذ قرّ على هذا قراره ، اقترب من الشاطئ الصخري .

لكنه لما استعد للخروج من الماء ، أحس أن شيئاً تحت الماء يرتفع به ويظل يرتفع ، ويرتفع ، ويرتفع ، حتى رفعه إلى البر !

وحاول أن يجري هرباً ، لكن الفرصة كانت قد فاتت ، لأنه — لدهشته العظيمة — وجد نفسه في شبكة كبيرة هائلة ، وفي وسط مجموعة كبيرة جداً من السمك من كل نوع ولون وحجم ، يتخبطن حوله في الشبكة هنا وهناك ، كأنما قد أصيب جميعه بالجنون !

كذلك رأى — في الوقت نفسه — صياداً مخيفة هيئته ، يخرج من الكهف .

لقد كان منظره فيجاً شيئاً ينظر وحوش البحر . ولم يكن له برأسه شعر ككل الناس ، بل كانت تنبت برأسه — بدل الشعر — شُجيرة كثيفة تغطيها أوراق خضر . كذلك جلده كان أخضر اللون ، وعيناه خضراوين وذيله الطويلة التي تصل إلى الأرض كانت كذلك خضراء .

كان كل ما به أخضر حتى صار كأنه سيجارة (سجلية) كبيرة خضراء واقفة على رجليها الخلفيتين .

وحين شد هذا الصياد الأخضر الشبكة الكبيرة من الماء ، ورأى فيها كل هذا السمك ، صاح فرحاً ، قال : « الحمد لله ! الحمد لله ، إن غذائي

اليوم من السمك سيكون فخماً بديعاً ! » .

وقال بينوكيو يحدث نفسه وقد استعاد شجاعته : « من حسن حظى أنى لست سمكة ! » .

وحمل الرجل الأخضر الشبكة الحافلة بما فيها إلى الكهف ، وكان مظلماً يملؤه الدخان الأسود الكثيف ، وفى وسطه نار هائلة ، فوقها مقلاة كبيرة ملأى بالزيت يغلى وتخرج منه رائحة مقززة تقطع النفس كرائحة الشمعة عند إطفائها .

قال الصياد الأخضر : « سنرى الآن أى نوع من السمك جاءتنا به الشبكة اليوم ! » . ثم وضع فى الشبكة يده الضخمة القبيحة المنظر كأنها « الجاروف » الكبير ، وأخرج حفنة كبيرة من سمك « المرجان » فنظر إليها وشمها وقال : « هذا نوع طيب من " المرجان " ! نوع طيب جداً ! عال ، عال ! » . ثم ألقى الحفنة كلها فى حوض لا ماء فيه .

وأعاد هذه الفعلة مرات . وكان كلما أخرج نوعاً جديداً من السمك سال لعابه سروراً وقال :

« هذا " البورى " سيكون شهياً ! » .....

« وهذا " القاروص " سيكون لذيذاً ! » .....

« وهذا " السردين " سيكون ممتعاً ! » .....

« وهذه " الأنشوجة " سأكلها برأسها وذيلها ! » .....

« وأما " سمك موسى " هذا فإنه فاخر ! » .....

وطبعاً ذهبت كل هذه الأنواع العجيبة من مختلف الأسماك إلى الحوض الجاف مع « المرجان » .

وأخيراً .... جاء دور بينوكيو !

فلما أخرجه الصياد الأخضر من الشبكة ، فتح عينيه وحملق فيه دهشة ، وكأنما فزع لرؤيته بين السمك ، فقال : « أى نوع من السمك هذا ؟ إننى فى حياتى لم أر هذا النوع من السمك ! » .

وراح يقلبه فى يده يميناً ، ويقلبه شمالا ، ويفحصه بعناية ، ويشمه . وأخيراً قال : « آ .... » ! لا بد أنه نوع جديد من " أبى جلمبو " لم أرَه من قبل ! » .

وأحس بينوكيو المسكين بشىء من الدهشة والمهانة عندما شعر أن الصياد الأخضر يحسبه نوعاً من « أبى جلمبو » ، فغضب وقال فى صوت عال :

ـ ماذا تعنى بقولك إننى أبو جلمبو؟ هذه طريقة جميلة جداً فى معاملتى ! اسمح لى بأن أقول لك ـ ولفائدتك شخصياً ـ إننى لست أبا جلمبو ، بل أنا أرجوز !

ـ أرجوز ؟! أقول لك الحق إن « سمك الأرجوز » هذا ، نوع جديد على ، لم يمر فى حياتى ، ولا أعرفه . وهو كذلك ، فليكن ! هذا أمر يسرنى كل السرور . وعلى ذلك فسأكلك بمتعتى اللذة وعظيم الشهية !

— تأكلنى ؟! ما هذا ؟ ألا تفهم أنى لستُ سمكة حتى تأكلنى ؟ ألا ترى أنى مثلك تماماً ، لى عقل أفكّر به ، ولسان أتكلم به ؟

— هذا صحيح ! فعلاً ! وهو أمر مدهش حقًّا . وما دمتَ سمكة ذات عقل تفكّر به ولسان تتكلم به ، فإنى سأعاملك بمنتهى الاحترام والاحتيار .

— وما معنى هذا ؟

— هذا دليل المودّة والتقدير العظيم من جهتى أنا لشخصك الكريم . أعنى أنى أترك لك اختيار الطريقة التى تحب أنت أن أطبخك بها : هل تريد أن آكلك مقليًّا فى الزيت بالقلاة ، أو تفضل أن أطبخك فى الحلة ، بصلصة ، الطماطم ؟ أخبرنى بما تريد .

— أقول لك الحق : لو تركتنى فى الاختيار لاخترتُ أن تتركنى حرًّا لأرجع إلى البيت .

— إنك تخرج من غير شك ! هل تظنى أضيع مثل هذه الفرصة النادرة ، أتذوّق فيها طعم سمكة نادرة مثلك ؟! إنها فرصة لا تصادفنى كل يوم ، فهذه أول مرة تجيئى فيها شكلى بواحدة من « سمك الأرجوز » . فاتركنى إذن الاختيار . وعلى ذلك فسأقليك بالزيت فى القلاة مع باقى السمك ، وأكيد أنك ستكون سعيداً مسروراً ، لأن القتل فى صحبة الزملاء الأعزّاء تسلية وعزاء جميل !

فلما سمع بينوكيو هذا ، صرخ وصاح طالباً الرحمة قال : « ألم يكفنى

أفضل لى لو أنى ذهبت إلى المدرسة ؟! آ ...» ، أو ...٥٠ آ ... » ! »

وراح يتلوّى بين يدَى الصياد الأحمر ، وينتفض كأنه واحد من ثعابين البحر ، ويبذل كل جهده للتخلص من مخالبه . فلما رأى الصيادُ الأحمر ذلك شدّ قبضته عليه ، وربط يديه ورجليه بهيئة «السُّجق» ثم رماه فى الحوض الجاف مع باقى السمك .

ثم إن الصيّاد الأحمر أحضر وعاء خشبيًّا فيه دقيق ، وراح يقلّب السمك فى الدقيق ثم يرميه فى الزيت المغلى بالمقلاة .

وكان « البورى » أول من نزل بالمقلاة ، فرقص وانتفض وتلوّى ثم تبعه « المرجان » ثم « سمك موسى » ثم « أبو جلمبو » ثم « السردين » حتى جاء — آخر الأمر — دور پينوكيو . فلما رأى نفسه قريباً من الموت على هذه الصورة الفظيعة ، ازبد وأخذته رجفة شديدة ، وأصابه فزع هائل حتى لم يعُد المسكين قادراً حتى على التنفس أو الكلام ليطلب من الرجل الرحمة .

كل ما أمكنه أن يفعله إذ ذاك هو أن ينظر إلى الرجل بعينيه متوسّلا . لكن الصياد الأحمر لم يظر إليه أو يلتفت إلى ما يريد أن يقوله . بل رماه فى الدقيق وقلّبه فيه خمس مرات أو ستًّا ، ثم أخرجه منه ، تكسوه طبقة خفيفة من الدقيق المبلول ، صار بفضلها أرجوزاً من عجين ...

ثم أمسكه الرجل من رأسه ، و ...

... ولكن فى اللحظة التى همّ الصياد فيها أن يرى پينوكيو فى الزيت الساخن بالمقلاة ، دخل الكهف كلبٌ ضخم كبير ، صافنّه إلى الكهف رائحة السمك المقلىّ الطائحة .

فلما رآه الصياد الأحمر ، صاح به غاضباً مهدّداً وقال : «امشِ» وكان لا يزال ممسكاً فى يده الأرجوز يكسوه العجين ! !

لكن الكلب المسكين كان يشعر بالجوع الشديد يكاد يموت منه ، فنبح وهزّ ذيله وكأنه أراد أن يقول : « أعطنى لقمة واحدة ، وأعدك بأن أمشى بعدها » .

لكن الصياد الأحمر صاح به مرة ثانية ، وقد جرّ رجله ليرقصه بها وقال : « امشِ ، وإلا ضربتُك ! » .

غير أن الجوع الشديد كان قد بلغ من الكلب مبلغاً كاد يقتله ، حتى أصبح مصمّماً ألا يتحرك من مكانه أو أن يسمح لأحد بإخراجه من الكهف قبل أن يأكل شيئاً . فكشّر الصياد عن أنيابه الحادّة وزمجر مهدّداً .

ورجع الكلب إلى بيته . أما پينوكيو ، فإنه بعد أن بقيَ وحيداً ، راح إلى كوخ حقير مُجاور ، يسكنه رجل عجوز ، كان جالساً أمامه يتشمس عند الباب .

قال الأرجوز : « قل لى يا سيدى الكريم ، هل تعرف شيئاً عن ولد اسمه أوجين ، كان قد جُرِح فى رأسه ؟ » .

ـ نعم . أحضرَه هنا بعضُ الصيادين . لكنه الآن . . .

فقاطعه پينوكيو متألماً وقال : « لكنه الآن قد مات . . . ؟ » .

ـ لا ، إنه حيّ ، وقد رجع الآن إلى البيت !

فقفز پينوكيو فرحاً وقال : « صحيح ؟ إذن لم يكن جُرحه خطيراً ؟ » .

ـ كان من المُمكن أن يكون خطيراً ، بل قاتلا ، لأنهم رموه بكتاب كبير مُغلَّف بالجلد السَّميك أصابه فى رأسه إصابة شديدة .

ـ ومن الذى رماه بهذا الكتاب ؟

ـ واحدٌ من زملائه بالمدرسة اسمه پينوكيو .

فقال پينوكيو ، وكأنه لم يسمع قط بهذا الاسم : « ومن پينوكيو هذا ؟ »

ـ يقولون إنه ولد شرِّير فاسد مُشكِّع .

ـ كذب ! هذا كذب !

ـ وهل تعرفه أنت ؟

قال الأرجوز : « أعرفه شكلا ! » .

ـ وما رأيك فيه ؟

ـ رأيى فيه أنه ولد طيب ، مُطيع ، مجتهد ، يحبّ مدرسته ودروسه ، ويحبّ أباه وعائلته .

وفى الوقت الذى كان پينوكيو يكذب فيه هذا الكذبَ الجريء ، تصادف أن لمستْ يدُه أنفه ، فلما وجد أنه يزداد طولا على طول صاح غاضباً وقال :

ـ لا ، لا سيدى الكريم ، لا تصدّق شيئاً مما قلتُه لك ! إنى أعرف پينوكيو هذا معرفةً جيدة ، وأؤكد لك أنه ولد فاسد شرير ، كسول مُشكِّع غير مطيع ، يقضى وقته مع الزملاء الأشرار ، بدلا من أن يذهب إلى المدرسة يقضى فيها وقته ، ويهمّ بدروسه .

فعاد أنفُه يقصُر حتى صار كما كان . فسأله الرجل العجوز فجأة وقال :

ـ ولماذا أبيضُ وجهك حتى أصبح كالشَّمْع أو كالدقيق ؟

ـ أنا أخبرك بما حدث لى يا سيدى ، إنى ـ من غير أن أنتبه ـ احتككت بحائط طُلِيَ حديثاً بطلاء أبيض .

وطبعاً فهمتُم ـ أيها القراء الأعزاء ـ من هذا الكلام ، أن پينوكيو قد خجل من ذكر الحقيقة ـ خجل أن يقول إن صياداً غمسه فى الدقيق كما يُغمَس السمكُ ، استعداداً لقَليه .

— وما الذى حدث لسترتك وبنطالك (بنطلونك) وطاقيتك ؟ ما الذى فعلته بها جميعاً ؟

— قابلنى فى الطريق لصوص مزقوا جميع ثيابى . قل لى يا سيدى الكريم ، هل أجد عندك ثياباً قديمة تعطينى إياها لأتمكّن من العودة إلى البيت ؟

— آسف يا ولدى ، فليس عندى إلا كيس صغير أحفظ فيه القول ، بإمكانك أن تأخذه إن أردت . إنه هناك فى ذلك الركن ، خُذه إن أردت .

ولم يُطِل بينوكيو التفكير . لقد راح إلى كيس القول فأخذه ، وأمسك المقص فقطع به فى قعر الكيس خرقاً كبيراً ، وفى كلّ من جانبيه خرقاً ، ثم لبسه ، فصار كأنه قميص قصير !!!

وفى هذا اللباس العجيب ، قصد الأرجوز إلى بيته !

لكنه فى أثناء مشيه ، بدأ يُحِسّ شيئاً من القلق وعدم الاطمئنان ، فكلما تقدم إلى الأمام خطوة ، رجع إلى الوراء خطوة ، وكان يحدّث نفسه ويقول : «كيف يمكننى أن أرى نفسى للإنسية الرقيقة ، وأنا فى هذه الصورة ؟ ماذا تقول هى عند ما ترانى ؟ هل تعفو عنى وعن ذنبى الثانى هذا ، الذى ارتكبتُه بعد وعدى لها ؟ لا أظن ذلك ! بل أنا واثق أنها لن تسامحنى . إننى أستأهل ذلك كله ، لأنى ولد فاسد

لا أُصْلِح . كم مرة وعدتُها بتغيير حالى وسلوكى ، ثم لم أحافظ على وعودى ؟ » .

وصل الأرجوز إلى القرية بعد الظلام ، وكانت الليلة عاصفة ، والمطر شديداً مِدْراراً يملأ الجداول ، حتى تفيض ، فقصد مباشرة إلى بيت الإنسية ، واعتزم أن يدقّ الباب ويدخله ، ليتخلص من البرد والريح والأمطار .

لكنه عند ما وصل إلى الباب لم يَجِدْ فى نفسه الجرأة على دقّه ، فتراجع إلى الوراء قليلاً ، ثم رجع إلى الباب ثانية ، غير أنه لم يقدر على أن يُقنع نفسه بدقّه . فتراجع إلى الوراء ، ثم تقدم ، ثم تراجع ، ثم تقدم ، وهكذا ... حتى وجد (بعد تردّد دام زمناً) من الشجاعة ما يكفى لدقّ الباب ، فأمسك الدقّاقة الحديدية ، ورفعها ثم تركها تسقط بسرعة ، فدقّت الباب دقّاً خفيفاً ، خفيفاً لا يكاد يُسمَع . وكان هو فى أثناء ذلك يرجف خوفاً ورعباً !

وبقى ينتظر ، وينتظر ، حتى انقضت على ذلك نصف ساعة وأخيراً فُتِح شباك فى الطابق الأعلى من البيت (والبيت كما تعرفون ذو طبقات أربع) . وأطلّت منه قوقعة كبيرة ، برأسها نورٌ ضعيف باهتٌ ، وقالت :

— من هذا الذى يدقّ الباب فى مثل هذه الساعة ؟

— هل الإنسية بالبيت ؟

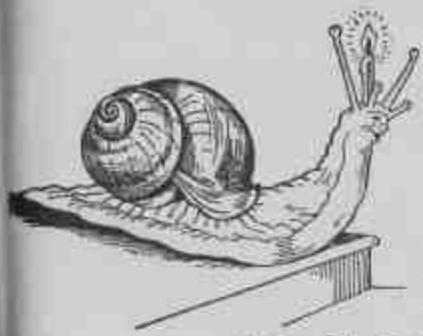

– الإنسية نائمة ، ولا تريد أن يزعجها أحد . ولكن قل لى من أنت .

– أنا أنا .

– أنا أنا ؟ أنا مَنْ ؟ تكلم .

– بينوكيو .

– بينوكيو ، بينوكيو ! مَنْ بينوكيو ؟

– الأرجوز الذى يعيش مع الإنسية .

– آه ... ه . فهمت . إذن انتظر ، فسأنزل إليك فى الحال لأفتح الباب .

– أسرعى بالله عليك ، وإلا متُّ من البرد .

– إنى يا بُنَىَّ قوقعة . ولا تنسَ أن القواقع غير قادرة على البرى .

ومرَّت ساعة وساعتان وثلاث ساعات . ولم يُفْتَح الباب .

وكاد البرد والمطر يقتلانه .

فجمع شجاعته ودق الباب ثانية دقًّا أعلى . وحينئذ انفتح شباكٌ فى الطبقة الثالثة أطلَّت منه القوقعة نفسها . فصاح بها بينوكيو من الشارع قال : « أيتها القوقعة الكريمة ، لقد انقضت علىَّ الآن ساعتان ، وما زلت

أنتظر ، وإن ساعتين فى هذا البرد القارس والمطر الشديد لأطولُ من سنتين ! ! أسرعى بالله عليكِ ، وإلا قضَى البرد والريح والأمطار .

فأجابته القوقعة البطيئة الهادئة بقولها : « مهلا يا ولدى مهلا ، إنى قوقعة ، والقواقع بطيئة لا تُسرع أبداً » .

وأقفلَ الشباك .

ومرَّتْ فترة ، دقت بعدها ساعةُ القرية اثنى عشرة دقة . لقد انتصف الليل . ومر زمن دقت بعده الساعة الواحدة ... فالساعة الثانية ... وما زال الباب مقفلا لم يُفتَح .

وفقد بينوكيو صبرَه وهدوءه . فأمسك الدقاقة غاضباً وهمَّ بدقة عالية جداً تهز البيت هزًّا ، لكنه ما لبث أن رأى الدقاقة تتحول فى يده ثعباناً ضخماً حيًّا ، انساب من يده ، واختفى فى تيارات ماء المطر الجارية فى الشارع .

فصاح بينوكيو وقد أغضبه كلُّ هذا غضباً شديداً ، وصار يمشى كالمسرحى قال : « ما دامت الدقاقة قد هربت من يدى ، فسأوقع البيت بقدمى ! » .

وتراجع إلى الوراء قليلا ، ثم رفس الباب رفسة شديدة جداً جداً . بحيث لفذت قدمه من الباب ، فلما حاول شدها . لم يقدر . لقد انغرزت بالباب ، كأنها مسمار دقه النجار فى الخشب المتين ، فأصبح من الصعب إخراجه .

تصوّروا منظر المسكين پينوكيو ! لقد كان مُضطراً لقضاء الليل بطوله على هذه الحال ، إحدى قدميه على الأرض ، والأخرى مغروزة بالباب ! ! !

وأخيراً . . . أخيراً عند طُلوع الفجر ، انفتح الباب . فتحته له القوقعةُ الكريمة بعد أن استغرق نزولها من فوق إلى تحت تسع ساعات فقط ، لا غير !

لا شك أنها كانت مدعوة بالصابون ، حتى تمكنت من الانزلاق بهذه السرعة المدهشة . . . ! ! !

ولما فتحت له الباب قالت ضاحكة : « ما هذا الذى تفعله بقدميك هذه المغروزة بالباب ؟ »

— هو حادثٌ حدث لى ! ألا تكرّمتِ يا سيدتى القوقعة الكريمة بتخليصى من هذا العذاب ؟

— هذه يا ولدى حالة تحتاج إلى نجار . وأنا طول حياتى لم أشتغل بأعمال النجارة .

— تَوَسَّلى إلى الإنسية لتُنقذك .

— هى نائمة ، ولا تريد أن يزعجها أحد .

— وما الرأىُ إذن ، وماذا يمكننى أن أفعله أنا لأتخلّصَ من هذا العذاب ؟ هل أبقى مغروزاً بالباب النهار بطوله ؟

— سَلْ نفسك بعدَ الفعل الذى يَمُرُّ قريباً منك .

— أحضرى لى على الأقل شيئاً آكله ، فإننى يكاد يغمى علىّ من الجوع الشديد .

— حالا ، حالا !

وانصرفت القوقعة لتُحضر له شيئاً يأكله .

ومضت على ذلك ساعات ثلاث ونصف الساعة ، جاءته بعدها تحمل على رأسها « صينية » فيها خبز وكتكوت مشوى وأربع « برقوقات » ناضجات . وقالت :

« هذا فطورك ، أرسلته لك الإنسية » .

فلما رأى پينوكيو هذه « الوليمة » الشهية شعر بالعزاء والراحة . لكنه ما إن مدّ يده ليأكل حتى تبيّن (وقد استاء كثيراً مما تبين) أن الخبز من القماش المشمّع ، والكتكوت من الورق المقوّى ، وأن « البرقوقات » الأربع الناضجات من الرخام ، وأن كل هذه الأشياء ملوّنة تلويناً متقناً جداً ، جعلها تبدو لعينيه أول الأمر طبيعية تماماً !

اشتدّ به اليأسُ وأراد أن يُسلم أمرَه لله ، ليجد فى اليأس راحة . لكن غضبه كان شديداً ، فلما أراد أن يرمى الصينية بما فيها أغمىَ عليه . ولا يمكننا أن نعرف ما لو كان هذا الإغماء سببه الهمُّ الشديد ، أم الضعف الذى سبّبه الجوع الذى عضّ معدته وبطنه عضّاً .

فلما أفاق ، وجد نفسه نائماً على أريكة (كنبة) ، والإنسية بجانبه مائلة عليه فى حنان تقول : « سأسامحك للمرة الثانية ، لكن الويل لك إن

أنت ارْتكبتَ بعد اليوم ذنباً جديداً ؟ »

فوعدها بينوكيو بأن يصلح من شأنه ليُصبح ولداً طيباً . وأن يحب ويستذكر دروسه .

ولقد حافظ بينوكيو على وعده طوال العام ، فكان أولَ زملائه في جميع الامتحانات حتى نال لقب « أحسن تلاميذ المدرسة » . وكان سلوكه على العموم مُرْضياً جداً ، جديراً بالإعجاب والثناء ، حتى صارت الإنسية مسرورة سروراً عظيماً وقالت له يوماً :

— غداً يتحقق كل ما تتمناه .

— تعنين أني . . .

— غداً لن تكون أرجوزاً من الخشب ، بل ولداً حقيقياً من لحم ودم .

لا يستطيع أحد ممن لم يروا بينوكيو في تلك اللحظة التي تلقّى فيها هذا النبأ السعيد أن يتصوّر مقدار فرحه وسروره .

ثم إنه دعا بعد ذلك كل أصحابه ومعارفه وزملائه بالمدرسة لتناوُل الفطور غداً ببيت الإنسية ، احتفالا بالحادث العجيب السعيد ! وأعدّت الإنسيةُ مائة فنجان من الشاي بالقشدة ، وأربعمائة قطعة من الكعك المُلبّد بالزبدة الطازجة .

وكان كل شيء يدل على أن غداً سيكون يوم سعادة وفرح وحبور ، لو لم . . .

وكلمة « لو لم . . . » هذه موجودة لسوء الحظ في حياة الأرجوزات لتفسد كلَّ ترتيب !

استأذن بينوكيو الإنسية في أن يمرّ ببيوت القرية ليدعوَ أصحابه لتناوُل الفطور معه في اليوم التالي . فقالت :

— بالتأكيد ، يمكنك أن تدعو أصحابك جميعاً لتناوُل الفطور معك غداً ، لكن لا تتأخرْ ، وارجع قبل غروب الشمس .

— أعدُكِ بأن أرجع بعد ساعة لا أكثر .

— حاذِرْ يا بينوكيو ، فمن السهل على الأطفال أن يُعطوا الوُعود كما يشاؤون ، لكن ليس من السهل عليهم المحافظة على وعودهم .

— لا ، لا ، لستُ كبقية الأطفال . إني إن أعطيتُ وعداً حافظتُ عليه وأنجزتُه .

— سنرى ذلك . فإنْ أنت عصيتَني ، فلا تلومنّ بعد ذلك إلا نفسك .

— ولماذا ؟

— لأن الأطفال الذين لا يستمعون لنصح مَنْ هم أعقلُ منهم ، تكون نهايتهم في العادة محزنة .

— لقد برهنتُ بأفعالي في كل ما سبق على صدق كلامك هذا . لكنني منذ اليوم سأصبحُ ولداً مطيعاً طيباً .

— سنرى إن كان ما تقول صحيحاً .

لم يزد بينوكيو على ما قال كلمة واحدة ، بل اقترب من الإنسية (التى كانت له أماً) فقبّلها وخرج من البيت مسرعاً . يرقص ويغنى .

ولم أقل من ربع ساعة كان قد انتهى من دعوة أصحابه جميعاً . فمنهم من قبل فى الحال مسروراً ، ومنهم من تردد فى قبول الدعوة ، حتى يُلمّح عليه بينوكيو ، لكنهم جميعاً حين علموا أن العطائر اللذيذة التى تُغمّس فى الشاى ذى القشدة ، سيكون على كل من وجوهها طبقة من الزبدة الطازجة ، قالوا : « نعم ، نعم ، سنجىء بكل تأكيد ، من أجل خاطرك أنت فقط ! » .

* * *

وكان من بين زملائه بالمدرسة صاحبٌ يحبه هو حبًّا ، ويُغرَم به غراماً . وكان اسم صاحبه هذا « روميو » لكنه كان مشهوراً بين زملائه وأصحابه جميعاً باسم « فتيل القنديل » ، لأنه كان نحيفاً طويلا مُتراخياً كفتيل القنديل !

كان « فتيل القنديل » هذا أكسل تلاميذ المدرسة ، وأكثرهم عملا للشر . ومع ذلك كان بينوكيو يحبه ويُغرَم به ! فلما ذهب إلى بيته ليدعوه لحفلة الغد ، لم يجده بالبيت . فلما رجع إليه بعد قليل ، لم يجده كذلك . فرجع إليه مرة ثالثة . ولكن بلا فائدة !.

أين ذهب فتيل القنديل ؟ وأين يُمكن أن يكون ؟

لقد بحث عنه فى كل مكان ، هنا وهناك ، يميناً وشمالا ، حتى وجده

أخيراً وبعد البحث الطويل مُختبئاً تحت سقيفة بيت واحد من الفلاحين . فحيّاه وقال له :

— بحثتُ عنك فى كل مكان ، ماذا تعمل هنا ؟

— أنتظرُ منتصفَ الليل ، لأرحل .

— ترحل ؟ إلى أين ؟

— بعيداً ، بعيداً جداً .

— لقد ذهبتُ إليك بالبيت ثلاث مرات .

— وماذا تريد منى ؟

— ألم تسمع بالخبر العظيم ؟ ألا تعرف ما سوف يحيشى من خير وسعد ؟

— ماذا ؟

— غداً ستتغيّر حالى . فلن أصبح بعد اليوم أربوراً من خشب ، بل أصير ولداً حقيقيًّا مثلك وبقية الأولاد .

— عال ، عال ! مبارك عليك !

— وهذا فسأنتظر مجيئك إلى بيتى غداً صباحاً لتناول الفطور معى .

– ألم أقل لك إني راحل هذا المساء ؟

– في أيّ وقت ؟

– عند منتصف الليل .

– إلى أين ؟

– إلى مكان أعيش فيه ... إلى أجمل مكان في الدنيا ... إلى الجنة الحقيقية !

– وما اسم هذا المكان ؟

– اسمه « بلاد اللعب » . لماذا لا تجيء أنت أيضاً معي ؟

– أنا ؟ بالطبع لا !

– مخطئ يا بينوكيو ! صدّقني إنْ قلتُ لك إنك إن لم تجيءْ معي فستندم ندماً شديداً . وهل يمكنك أن تجدَ في هذه الدنيا مكاناً هو أجمل وأنسب للأطفال من هذا المكان ؟ إنه مكان لا مدارس فيه ولا كتب ولا مدرسين . إنه مكان لا يُضْطَرُّ فيه أحدٌ لاستذكار درس . فيوم الخميس هناك عطلة . والأسبوع هناك كله أيام الخميس : ستةٌ من أيام الخميس ويومٌ جمعةواحد . تصوّر ! فأما إجازات الأعياد فتبدأ في الأول من يناير وتنتهي في الآخر من ديسمبر . إنه المكان الوحيد الذي أحبُّ من كل قلبي أن أعيش فيه طول حياتي ! هكذا يجب أن تكون جميع البلاد المتمدينة !

– ولكن كيف يمضي الناس وقتهم هناك ، في « بلاد اللعب » تلك ؟

– يلعبون ويُمتّعون أنفسهم طول النهار ، من الصباح إلى الليل ،

ثم يأوون إلى الفراش . ثم يبدؤون ذلك ثانية في الصباح ، وهكذا . فما رأيك ؟

فزام بينوكيو قال : « مْ ... مْ ... مْ ... م ... م ! » . ثم هزّ رأسه كأنما يريد أن يقول : « إن هذا النّوْع من الحياة يناسبني أنا أيضاً » .

فقال صديقه « فتيل القنديل » في الحال :

– والآن ، هل تجيء معي ؟ نعم أم لا ؟

– لا ، لا ، لا ، بكل تأكيد ، لا ! لقد وعدتُ الإنسيّة الرقيقة أن أكون ولداً طيباً ، وسأحافظ على وعْدي . والحقّ أني أرى أنّ الغروب قد اقترب ، وأني لهذا يجب أن أتركك وأن أسرع بالرجوع إلى البيت . وداعاً إذن ، وأرجو لك رحلة سعيدة وأوقاتاً طيبة هانئة .

– إلى أين تذهب بهذه السرعة ؟

– إلى البيت . إن الإنسيّة الرقيقة تريد أن أرجع إلى البيت قبل غروب الشمس .

– انتظر قليلا .

– أتأخرُ لو انتظرتُ .

– دقيقة واحدة

– وإذا الإنسيّة وبختني ؟

فقال اللعين « فتيل القنديل » :

– دعها توبخك كما تشاء . إنها ، متى فرغ توبيخها ، سكتتْ !

— وهل أنت ذاهب وحدك ؟

— وحدى ؟ إننا أكثر من مائة !

— وهل تذهبون مشياً على الأقدام ؟

— سنجىء إلى هنا ، عند منتصف الليل ، عربة فخمة لتحملنا إلى ذلك البلد المُدهش الجميل .

— لو أنّ الوقت كان الآن منتصف الليل ، لغيرتُ رأيى ونزلتُ عن كل شىء .

— ولماذا ؟

— لأراكم حين تسافرون .

— انتظرْ قليلا ، وحينئذ يمكنك أن ترى سفرنا .

— لا ، لا . يجب أن أرجع إلى البيت .

— انتظر دقيقتين .

— لا ، لا . لقد انتظرتُ أكثر مما يجب . وأنا متأكد أنّ الإنسية الطيبة الآن من أجلى .

— مسكينة تلك الإنسية ! الظاهر أنها تخاف عليك أن تأكلك الوطاويط !

— ... وهل أنت متأكدٌ أنّ ليس بذلك البلد أية مدارس ؟

— ولا خيال المدارس !

— ولا مدرسون ؟

— لا تجد فيه منهم واحداً .

— وسكان ذلك البلد ، ألا يُضطرّ أحدٌ منهم لاستذكار دروسه ؟

— أبداً ، أبداً !

فشهق پينوكيو شهيقاً عميقاً ، وبقى لحظة يفكر وقد سال لُعابُه لمجرد تصوُّر هذا ثم قال :

— عجيبٌ ذلك البلد ! عجيب ! أنا طبعاً لم أذهب هناك قط ، لكننى مع ذلك يمكننى أن أتصوّره وأتصور الحياة فيه !

— ولماذا لا تجىء معنا أنت أيضاً ؟

— لا تُحاول إغرائى ، فلا فائدة من ذلك ! لقد وعدتُ إلسيّتى الرقيقة بأن أكون ولداً عاقلا ، وليس فى نيتى أن أخلف وعدى .

— وداعاً إذن ، وأبلغْ سلامى لجميع المدارس الابتدائية والثانوية وللمدارس العالية أيضاً ، إنْ قابلتها فى طريقك .

— وداعاً يا قنديل . أرجو لك سفراً سارًّا وأوقاتاً سعيدة . واذكرْ أصحابك هنا مرة فى كل يوم .

فلما انتهى پينوكيو من قوله هذا ، مشى بضع خطوات كأنه يُغادر صاحبه ويغادر المكان ، لكنه ما لبث أن وقف والتفت إلى صاحبه وقال :

— هل أنت متأكد تماماً أن إجازات الأعياد تبدأ فى الأول من يناير وتنتهى فى اليوم الأخير من ديسمبر ؟

— من غير أىّ شك !

– وهل أنت متأكد أن كلّ الأسابيع في ذلك البلد العجيب أيام خميس مثلي ، ويوم جمعة واحد؟

– كل التأكيد !

– عجيب ذلك البلد ! عجيب !

ثم تلمّظ بشفتيه وأحدث منهما صوتاً ، وقد كاد يجنّ من فرط الدهشة والسرور . وما لبث أن قال – بعد أن استجمع كل عزيمته :

– والآن وداعاً للمرة الأخيرة ، وداعاً ! أرجو لك سفراً طيباً .

– وداعاً يا پينوكيو.

– كم من الوقت يتبقى على موعد سفركم ؟

– ساعتان .

– شيء مؤلم حقاً ! لو كان الباقي ساعة واحدة لا أكثر ، لأمكنني الانتظار لأرى رحيلكم .

– والإنسية ؟

– لقد انتظرتُ فعلاً أكثر مما يجب ، وإن ساعة واحدة بعد هذا التأخير كله لا تهم .

– مسكين يا پينوكيو ! وما القول إذا ويخك ؟

– لا بأس ! سوف أدعها توبخ ، فإذا فرغ توبيخها ، سكتت !

وكان الظلام الحالك قد ساد المكان كله . وفجأة ، رأى الاثنان

من بعيد نوراً ، نوراً ضعيفاً يهتزّ ويتحرك ، ومعه أجراساً رقيقة ترنّ ، وصوت نفير صغير خافت واطئ كأنه طنين النحلة . فما كان من قنديل إلا أن قفز واقفاً على قدميه وقال : « ها هي ! » .

فقال پينوكيو في صوت واطئ : « ما هي ! » .

– العربة الضخمة إنها جاءت لتأخذني . هل تريد أنت أيضاً أن تذهب معنا ؟ نعم أم لا ؟

– ولكن هل صحيح حقاً أن الأطفال هناك ، في ذلك البلد ، لا يضطرون أبداً لاستذكار دروسهم ؟

– أبداً ، أبداً !

– عجيبٌ ذلك البلد ! عجيب جداً ! بلد عجيب حقاً !

٣١

وأخيراً وصلت العربة الضخمة .

كانت تمشي دون أن يُسمع لمشيها صوت (فإن عجلاتها كانت ملفوفة بالخرق وخيوط الكتان) ويجرُّها اثنا عشر زوجاً من الحمير ، كلها من حجم واحد ، وإن اختلفت ألوانها .

لكن الغريب في تلك الحمير ، أنها جميعاً – أعني الاثني عشر زوجاً ، أو قل الأربعة والعشرين حماراً – لم تكن مُحدَّوة كبقية الحمير ،

بل كانت تلبس أحذية كأحذيتنا نحن بنى آدم ، مصنوعة من جلد العجول الأبيض .

والحوذى ؟

تصوّروا رجلا عرضُه أكبر من طوله ، طريًّا ناعماً ، كأنه كرة من الزُّبد ، له وجه صغير كأنه التفاحة الحمراء ، وفمٌ صغير ضاحك ، وصوتٌ ناعمٌ لطيف حلو مُريح ، كصوت القطة حين تموء تطلب لبناً .

كان الأطفال جميعاً يقعون فى حبه عندما يرَوْنه لأول مرة ، ويتزاحمون على باب العربة ، كلٌّ منهم يريد دخولها قبل غيره ، والذهاب معه إلى ذلك البلد الجميل العجيب ، المعروف على الخريطة بالاسم الجميل المُغرى ، اسم « بلد اللعب » .

وكانت العربة ممتلئة فعلا بالأولاد ، أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة ، مُزدحمين فيها

كأنهم السردين فى العلبة . كانوا مزدحمين غير مُستريحين ، حتى ليكادون يعجزون عن التنفس ، لكنهم مع ذلك كانوا فرحين مسرورين ، لم يقُلْ أحد منهم « آ . . . ىْ ! » .

كان يُعزّيهم عنهم بأنهم بعد ساعات قليلات ، سيكونون فى بلد خال من الكتب والمدارس والمدرسين ، مما جعلهم يصبرون على كل تعب ويتحمّلون كل مشقة .

كانوا سُعداء ، سعداء جداً ، لا يُحِسّ أحدهم تعباً أو جوعاً أو عطشاً أو حاجة إلى النوم ، أو غير ذلك من الآلام .

وما إن وقفت العربةُ الفخمة ، حتى التفتَ الرجل الصغير الضاحك إلى فتيل القنديل ، وحياه والحنّى له ألف مرة ، وقال مبتسماً أحلى الابتسامات :

— قلْ لى ، أيها الولد اللطيف ، هل أنت ذاهب إلى ذلك البلد السعيد؟

— بالتأكيد ، أنا ذاهب .

— لكن العربة — كما ترى — لم يَعُدْ بها مكان ، إنها امتلأت .

— لا بأس ! إن لم أجد بداخلها مكاناً يسعنى ، فسأركب فوق « العريش » .

ثم إنه قفز فركب فوق « العريش » .

فقال الرجل الصغير الضاحك لبينوكيو ، إذ رآه ينظر إليه بإعجاب : وأنت ، أيها الحبيب ، ماذا نويت ؟ أتجىء معنا ، أم أنك باقٍ هنا ؟»

— بل أنا باقٍ هنا . إنى راجع إلى البيت ، فإنى أريد أن أستذكر دروسى ، وأن أكون تلميذاً طيباً كبقية الأولاد الذين حَسُنَتْ تربيتهم .

— عال ، عال ! مبارك عليك !

فصاح قنديل القنديل وقال : « اجمع كلامى يا پينوكيو وتعالَ معنا ، ستكون جميعاً سعداء ، سُعَداء » .

— لا ، لا ! مستحيل !

فسمع پينوكيو أصواتاً من داخل العربة تصيح به قائلة :

— تعالَ معنا ، تعال معنا ! ستكون سعداء ، سعداء !

— لا يمكننى . إذ ماذا تقول الإتسبةُ إنْ أنا جئتُ معكم ؟

— لا تُزعجْ نفسك بمثل هذه الأفكار ، ولا تفكّرْ إلا فى أننا ذاهبون إلى بلد لن نعملَ فيه شيئاً ، إلا أن نلعب ونلهوَ ونمرحَ من الصباح إلى الليل .

لم يُجب پينوكيو ، بل شهق شهيقاً عميقاً ، وسال لُعابُه . ثم شهق ثانية وثالثة . وأخيراً قال : « وهو كذلك ! فليكنْ ما يكون ! اقعدوا فى معكم مكاناً ، فإنى آتٍ معكم » .

فقال الرجل الصغير الضاحك : « كلُّ مكانٍ ممنوه . لكننى مع ذلك ، — ولكنّى أُعلمك على مبلغ سرورى بمجيئك معنا — سأعطيك مكانى » .

— وأنت ، ماذا تفعل ؟

— سأمشى .

— لا ، لا ! لا يمكننى أن أتركك تفعل هذا ! سأركب أنا واحداً من هذه الحمير .

ولم يكد ينتهى پينوكيو من جُملته ، حتى كان قد اقترب من الحمار الأول الأيمن ، واستعدَّ للقفز فوقه . لكن الحيوان جمح ورفسه فى معدته رفسة أطارته فى الهواء ، رأسُه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى .

تصوَّروا كيف راح كل هؤلاء الأطفال الملاعين يضحكون !

لكنّ الرجل الصغير لم يضحك . لقد ذهب إلى الحمار وتظاهر بأنه يُريد أن يقبِّله ، ثم عضّ أذنه اليُمنى فقطع نصفها .

وإذ كان الرجل يفعل ذلك ، كان پينوكيو غاضباً أشدَّ الغضب فلده المُعاملة التى لقيها من الحمار ! وقام واقفاً على قدميه من حيث رمَتْه الرفسة الشديدة ، ثم قفز قفزة واحدة بارعة أجلسَتْه على ظهر الحمار مُباشرة ! قفزة واحدة بارعة أمسكت الأطفال عن الضحك ، وبعثت فيهم الإعجاب بالأرجوز ، فصاحوا قائلين : « يعيش پينوكيو ! » ، وصفّقوا بأيديهم طويلا ، طويلا ، وكأنهم لا يريدون أن يُمسكوا عن التصفيق أبداً .

غير أن الحمار ما لبث أن رفع رجليه الخلفيتين فجأة فى الهواء ، فرمى الأرجوز المسكين من فوقه بعيداً فوق كومة من الحجارة .

وراح الأولاد يضحكون مرة ثانية . لكن الرجل الصغير لم يضحك . لقد ذهب إلى الحمار الشرس من الجانب الآخر ، وتظاهر بأنه يُريد

أن يقبّله ، ثم عض أذنه اليسرى فقطع لصغها قطعاً . ثم التفت إلى پينوكيو وقال له : «اطلع الآن فوقه ولا تخف . إنه عنيد كالبغل . لكنني وضعت في أذنه برغوثاً ، وأظنّه سيكون من الآن أكثر أدباً » .

وركب پينوكيو الحمار ، وسارت العربة .

وبينما كانت سائرة ، والحمير تجري فوق حجارة الطريق وتركض ركضاً ، خُيِّل إلى پينوكيو أنه يسمع صوتاً واطئاً خافتاً ، يكاد لا يُسمع ولا يبين ، ولا يكاد يُفهَم . وكان هذا الصوت يقول : « أيها الأبله المسكين ! لقد أردتَ أن تمشي حسب هواك ، وأن تفعل ما تريد ، لكنك ستندم على ذلك ندماً شديداً » .

فتفزع پينوكيو ، والتفت حوله ليرى ذلك الذي يقول تلك الكلمات ، لكنه لم يرَ أحداً .

وبقيت العربة سائرة ، والحمير تجري فوق حجارة الطريق وتركض ركضاً .

ونام الأولاد بداخلها ، وراح قنديل القندبل يخفق خفيقاً عالياً ، في حين بقي الرجل الصغير الفاحك يغني (وكأنه يُخرج الكلمات من بين أسنانه) ويقول :

« كلٌ واحد منهم نائم ، ونائم طول الليل .

« إلا أنا ما ذُقتُ طعمَ النوم . . . »

ولم يلبث پينوكيو أن سمع بعد قليل ذلك الصوت الواطئ الخافت

يقول للمرة الثانية : « تذكّر ، أيها الصغير العنيد ، ذا الرأس الناشف ، أن الأولاد الذين لا يتعلمون ، والذين يُديرون ظهورَهم للمدرسة والكتب والمدرسين ، تكون نهايتهم في العادة سيئة . لقد جرّبتُ أنا ذلك وعرفته ، فأنا أعرف ما أقول . سيجيء اليوم الذي تبكي فيه بدل الدموع دماً ، كما أفعل أنا الآن ، ومتندم ندماً شديداً . ولكن سيكون ذلك بعد ضياع الفرصة وفوات الأوان ! » .

فلما سمع المسكين هذا زاد فزعُه ، وأصبح خائفاً خوفاً شديداً . فتقفز إلى الأرض من فوق الحمار ، وأمسكه من لجامه .

تصوّروا دهشةَ الأربعين ، يا قرائي الأعزّاء ، حين نظر فرأى الحمار يبكي بُكاءً ، كما يبكي الأطفال .

لقد صاح بينوكيو بالرجل الصغير الضاحك وقال :

ـ هيهْ ! أيها الرجل الصغير ! هل تعرف ما يحدُث ؟ إن هذا الحمار يبكي

ـ دَعْهُ يبكي ! سيكون بإمكانه أن يضحك في الحادي والثلاثين من شهر يولية .

ـ هل علّمتْه الكلام ؟

ـ لا ، لقد علّم هو نفسه ، حتى صار قادراً على أن يُتمتم بالكلمات . لقد صاحبتُ خلال سنوات ثلاث كلاباً مدرّبة ماهرة .

ـ مسكين !

ـ تعالَ ، تعال ! لا تُضيّعْ وقتك في النظر إليه ، والشمس ، والليلة باردة ، والطريق طويلة .

فعمل بينوكيو ما أُمِر ، من غير أن يُجيب بكلمة واحدة .

وسارت العربة الفخمة .

فلما طلع الفجر كانوا قد وصلوا إلى « بلد اللعب » مُعافينَ سالمين .

لم يكن « بلد اللعب » هذا كأي بلد آخر من بلاد هذه الدنيا .

لقد كان سكّانه جميعاً من الأطفال فقط ، أكبرهم لا يزيد عمره على الرابعة عشرة ، وأصغرهم لا يقل عن الثامنة .

فأما صياحُهم وضجيجُهم وتهليلهم في الشوارع فقد كان كافياً لأن يصيب أعقلَ الناس بالجنون !

كان الأطفال مُتجمّعين في كل مكان من المدينة ، بعضُهم يلعب بالكرة ، وبعضهم يلعب لعبة الاستخفاء ، وبعضهم يلبس ملابس المهرجين ويأكل النار ويبلع الزجاج ويُدخل السيوف في جوْفه ، وبعضهم يجري وراء طوق من خشب أو صفيح ، وبعضهم على مسرح يلعب أدواراً في روايات مضحكة ، وبعضهم يغنّي ، وبعضهم « يتشقلب » أو يمشي على يديه ويرفع رجليه في الهواء ، وبعضهم يلبس ثياب كبار قوّاد الجيوش ، ويمشي مشية الضباط العسكرية ، ويضع على رأسه قبعة فخمة من الورق الملون المزخرف ، ويُصدر الأوامر لجُنْدٍ أمامه من الخشب .

ومنهم من يبالغ ، ومنهم من يصفق ويضحك ، ومنهم من يصفر أو يحدث

صوتاً كصوت الفراخ حين تَبيض ، أو الكتاكيت حين تلعب أو تأكل .

لقد كان المَرَح شديداً والمرَح بالغاً ، والضَّجَّة عالية تصمُّ الآذان ، ما لم يُوضع فيها قطن !

وأما المسارح الصغيرة فقائمة فى كل مكان فسيح ، يزدَحِمُ الأطفال فيها طول النهار ، وكانت حيطان البيوت ملأى باللوحات اللطيفة المكتوبة بالفحم ، وفيها مثلا : « ليسقُط الحساب ! » أو « يعيش بلد اللعاب ! » (بدلا من اللعب) أو « لا مدارس ولا دروس بعض اليوم » (بدلا من « بعد ») . وهكذا من أمثال هذه اللوحات والعبارات الملأى بمثل تلك الأغلاط !

عند ما وصلت العربة الضخمة (التى يقودها الرجل الصغير الضاحك) إلى أبواب المدينة خرج كل مَن فيها من الأطفال وصاروا — وعلى رأسهم فتيل القنديل — إلى الانضمام إلى من فى المدينة من الأطفال . وبعد دقيقة واحدة كان كل الأولاد فيها قد أصبحوا أصدقاء ، كأنهم يعرف بعضهم بعضاً من سنوات طوال .

كانت الساعات والأيام والأسابيع تمرّ مرور البرق الخاطف ، بفضل هذه الملاهى ووسائل التَّسلية التى لا تنقطع .

وكان پينوكيو كلما لقىَ فتيل القنديل فى مكان من هذه المدينة حيّاه وقال : « أيه ! أية حياةٍ مدهشة هذه التى نحياها هنا فى هذا البلد الجميل ! » .

فيُجيبُه فتيل القنديل بقوله : « هل رأيتَ أنى كنتُ على حق ؟ تصوَّرْ أنك لم تكن تُريد أن تجىء معنا ! وأنك كنتَ تريد أن ترجع إلى بيت الإنسية ، لتضيع وقتك فى الدروس ! إنك إن كنتَ اليوم قد أصبحتَ حرًّا ، خلياً من هموم الكتب ومضايقات المدارس ، فالفضلُ فى ذلك راجعٌ إلىّ أنا ، لتصيحَى ، لرغبتى الصادقة فى سعادتك ورفاهيتك . أليس كذلك ؟ إن الصديق المخلص هو وحده الذى يُقدم إليك مثل هذا الجميل العظيم » .

— نعم يا فتيل القنديل ، كل ما تقوله صحيح ! إنى إن كنت اليوم قد أصبحتُ سعيداً محظوظاً فإنما الفضل فى ذلك راجعٌ إليك أنت . ولكن هل تعرف الذى كان يقوله المدرس عنك؟ كان دائماً يقول لى : « لا تصاحِبْ هذا الولد الخائب ، فتيل القنديل ، فهو ولد فاسد شرير ، وسوف يُؤدى بك إلى المتاعب » . تصور !

فهز فتيل القنديل رأسه ، وقال : « المسكين ! كنت أعرف تماماً أنه لا يحبنى ، وأنه كان يسره أن يتحدث عنى دائماً بعبارات الشر والسوء ، لكنى مع ذلك ولد كريم ، وإنى لذلك أسامحه » .

قال پينوكيو — وهو يقبِّل صاحبه على طرف أنفه قبلة أودَعها كلَّ حبه وإعجابه : « أيها الولد النَّبيل ! » .

ومرَّت أشهر خمسة ، قضاها پينوكيو فى هذا الفِرْدَوْس الأرضى ، فِردوس اللعب والملاهى ووسائل التَّسلية التى لا تنقطع ، دون أن تقَع

جيبُه على شيء مما يذكره ، حتى ولا غلافة لكتاب ، أو خيال لمدرسة . حتى أصبح ذات يوم ، فإذا به يُفاجأ مفاجأةً لا أسرَّ منها أبداً ، فقد بسببها كلَّ ما كان فيه من فرح ونشوة وحُبور ! !

٣٢

ما هذه المفاجأة التي حدَّثتكم عنها ؟

لما صحا پينوكيو من نومه ذات صباح ، بدأ طبعاً يحكُّ رأسه . وبينما كان يفعل ذلك ، لاحظ ...

هل يمكنكم أن تُخمّنوا ما لاحظه ؟

لاحظ — لدهشته العظيمة جداً جداً — أن أذنيه كبرتا ، وزادتا طولا بضعة عشر سنتيمتراً !

وأنتم تعرفون طبعاً أن الأرجوزات ، آذانهم صغيرة من يوم يولدون ، صغيرة جداً ، صغيرة جداً حتى لتصعُبُ رؤيتها بالعين المجرَّدة ! وهل هنا يمكنكم أن تتصوَّروا مقدار فزع پينوكيو حين لمس أذنيه ، فتأكد أنهما كبرتا وطالتا في أثناء نومه بالليل ، حتى صارتا كأنهما مِكنَسَتان !

لقد قفز من فراشه مُسرعاً يبحث عن مرآة يرى فيها نفسه . لكنَّه لم يجدْ مرآة ولا طِلاَّ لمرآة . فأسرع إلى الطشت فملأه ماء ، ونظر فيه ، فرأى

— وما أعجب ما رأى — رأى نفسه وقد زيّنت رأسه أذنان فخمتان من آذان الحمير ! ! !

وأترك لكم أن تتصوروا مقدار حزنه وخجله !

فقد راح يبكي ، ويصرخ ويضرب بالحائط رأسه . لكنه كلما زاد بكاء وصراخاً ، زادت أذناه طولا ، ونبت فيهما الشَّعر .

وسمعه سنجاب يصرخ هذا الصراخ العالي ، ويبكي هذا البكاء المؤلم . وكان هذا السنجاب يعيش في نفس المنزل الذي يعيش هو فيه ، في الطبقة العليا . فنزل إليه يسأله عن سبب صراخه وعويله . فلما رآه على هذه الحال قال :

— ماذا جرى لك يا جاري العزيز ؟

— إني مريض ، أيها السنجاب ، مريض جداً ، ومرضي خطير مخيف . هل يمكنك جسُّ نبضي ؟

— نعم ، أظن ذلك .

— إذن هل تسمح بجسّه لترى هل أنا مُصاب بالحمّى ؟

ومدَّ السنجاب مخلبه الأيمن الأمامي ، ووضعه على رُسغ الأرجوز ليجسَّ نبضه . ثم شهق شهيقاً عميقاً ، وزفر زفيراً طويلا ، وهزَّ رأسه وقال :

— آسف يا صاحبي كلّ الأسف ، فإن ما هنالك من الأخبار لن يسرّك أبداً .

— وما هذه الأخبار ؟

— إنك مُصاب بحمّى حامية كالنار .

— أي نوع من الحمى ؟

— حمّى الحمير .

فهم بينوكيو تماماً ما كان يريد السنجاب أن يقوله ، ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم شيئاً وقال :

— لم أسمع قطُّ في حياتي بهذه الحمّى .

— إذن أحدثك أنا عنها . فقد يجب أن تعلم أنك بعد ساعة أو ساعتين ستتغير حالك . فلن تكونَ بعد اليوم أرجوزاً ، أو ولداً ، بل ...

— بل ماذا ؟ . .

— ستصبح بعد ساعة أو ساعتين حماراً فحْماً كاملا ، كتلك الحمير التي تحمل الأثقال وتجرّ عربات الكرنب والبطاطس وأنواع الخضر إلى السوق .

فصاح بينوكيو يائساً وقال : « أية مصيبة هذه ... ! » ثم أمسك أذنيه وصار يلويهما ويشدّهما غاضباً غضباً شديداً ، وكأنهما ليستا أذنيه !

قال السنجاب مُعزّياً : « إنك يا عزيزي لن تستطيع عمل شيء ما . هي قسمتك ، ولصيبك كان مكتوباً لك في الأزل . فكلّ الكسالى من

الأطفال الذين لا يُطيقون الصبر على الكتب والمدارس والمدرسين ، والذين يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب يتهون دائماً هذه النهاية السيئة ، أعني أنهم يصبحون حميراً صغيرة يوماً ما » .

فبكى الأرجوز وقال : « هل صحيح ما تقول أيها السنجاب ؟ » .

— بكلّ تأكيد يا ولدي ، صحيح جداً ! فلا فائدة إذن من البكاء الآن . كان الواجب أن تفكر في هذا قبل فوات الأوان .

— لكنّ الغلطة لم تكن غلطتي ! صدّقني ، أيها السنجاب ، بل غلطة فتيل القنديل .

— ومَن فتيل القنديل هذا ؟

— إنه أحد زملائي بالمدرسة . كنت أريد أن أرجع إلى البيت ، كنت أريد أن أكون ولداً عاقلاً مطيعاً . . . كنت أريد أن أتعلّم وأستذكر دروسي وأؤدّي واجباتي لأنفع نفسي ... لكن فتيل القنديل قال : « لماذا تضايق نفسك بالتفكير في المدرسة والكتب والتعليم ؟ ما فائدة الذهاب إلى المدرسة ؟ إني أنصحك — بدلا من ذلك — أن تجيء معي إلى بلد اللعب : إنه بلد لا توجَدُ به مدارس ، ولا يطالبنا فيه أحد بالاستذكار والتعلم . سنقضي جميع وقتنا ، من الصباح إلى منتصف الليل ، في اللعب بلا انقطاع . سنكون دائماً سُعَداء ، سعداء ! » .

— ولماذا استمعتَ إلى نصائح هذا الصاحب الكاذب المخدّاع ، ذلك الزميل الفاسد الشرير ؟ .

— لأنني ... لأنني ، يا عزيزي السنجاب ، لأنني أرجوز لا عقل لي ولا قلب . أوه ! لو أنني كانت لي ذرة من القلب ، لما تركتُ الإنسية الرقيقة التي أحبتني كأنها أمي ، وصنعتُ لي كثيراً من المعروف والخير ! لو أنني استمعتُ لنصحها لما كنتُ الآن أرجوزاً ، بل لكنت قد أصبحتُ ولداً لطيفاً كبقيةِ الأولاد ! آه ، لو أنني قابلتُ الآن فتيل القنديل ، لأريتُه نتيجة ما فعل !.

وأراد بينوكيو أن يخرج من الغرفة ، لكنه عند الباب تذكر أن له أذني حمار ، وخاف أن يراه الناس بهذه الحال فيخجل . فأخذ طاقية قطنية كبيرة ، وشدّها على رأسه إلى أنفه ، فغطت أذنيه .

ثم خرج يبحث عن فتيل القنديل .

بحث عنه في كل الشوارع والميادين والمسارح والملاعب وأماكن اللهو ، لكنه لم يجده . فسأل عنه كل من قابله من معارفه وأصحابه ، لكنّ ما من أحد منهم رآه . وأخيراً ذهب إلى بيته ودق الباب ، فصاح فتيل القنديل من الداخل وقال :

— مَنْ هذا الذي يدق الباب ؟

— بينوكيو !

— انتظرْ لحظة واحدة ، أفتحُ لك بعدها الباب .

ومرت ساعة كاملة ، فتح بعدها الباب .

تصوّروا دهشة بينوكيو حين رأى صاحبه — عند ما دخل — يلبس

على رأسه طاقية قطنية كبيرة تصل إلى أنفه وتغطي أذنيه ! لقد تعزى بينوكيو بعض العزاء عند ما رأى هذا المنظر ، وقال لنفسه : « وربما كان هو أيضاً مريضاً مثلي . هل يمكن أن يكون قد أصيب هو كذلك بحمى الحمير ؟ » . لكنه تظاهر بأنه لا يرى شيئاً وقال لصاحبه مبتسما :

— كيف حالُك يا عزيزي يا فتيل القنديل ؟

— عال ، والحمد لله . إني سعيد كالفأر في مخزن الجبن الرومي .

— هل صحيح ما تقول ؟

— طبعاً صحيح . فما الذي يضطرّني للكذب ؟

— عفواً يا صاحبي . لكنْ قل لي لماذا تلبس هذه الطاقية التي تغطي أذنيك ؟

— أمرني الطبيب بلبسها ، لأنني جرحتُ ركبتي . وأنت يا عزيزي الأرجوز ، لماذا تلبس هذه الطاقية التي تصل إلى أنفك ؟

— أمرني الطبيب بلبسها لأني جرحتُ ساقي .

— مسكينٌ ، مسكين أيها العزيز بينوكيو .

— مسكين ، مسكين يا عزيزي يا فتيل القنديل .

وأعقب ذلك سكوت طويل ، كان الصديقان في أثنائه ينظر كلٌّ منهما إلى صاحبه ، ويستهزئُ به سراً .

وأخيراً قال بينوكيو في صوت حالم وتلميح :

— قل لي يا فتيل القنديل ، أريد أن أعرف ، ألمْ تمرض أذناك قط ؟

ـ كلاّ ، كلا . وأنت ؟

ـ كلاّ ، كلا . ولو أنى فى الواقع قد مرضتُ إحدى أذنىّ هذا الصباح ، لقد آلمنى ألماً شديداً .

ـ وأنا أيضاً آلمنى إحدى أذنى هذا الصباح ألماً شديداً .

ـ وأنت أيضاً ؟ أوه ! وأىّ أذنيك تلك التى تؤلمك ؟

ـ كلتاهما ، وأنت ؟

ـ كلتاهما كذلك . هل نظنُّه المرض نفسه ؟

ـ أظن ذلك .

ـ هل تصنع لى جميلاً ومعروفاً يا فتيل القنديل ؟

ـ بكلّ تأكيد ، ومن كلّ قلبى .

ـ هل تسمح لى بأن أرى أذنيك ؟

ـ وهل تسمحُ لى أنت بأن أرى أذنيك ؟

ـ بكلّ تأكيد ، ولكن أرِنى أذنيك أولا .

ـ لا ، أرِنى أنت أذنيك أولا .

ـ لا ، أرِنى أذنيك أولا ، ثم أريك أنا أذنىّ من بعد ذلك .

ـ فلنتفقْ إذن على ذلك ، كأىّ صديقين مخلصين .

ـ أجيبنى شروطك .

ـ لنخلعْ طاقيتينا معاً فى وقت واحد ، هل توافق ؟

ـ اتفقنا .

ـ والآن ، استعدّ !

وبدأ بينوكيو يعدّ بصوت مسموع : واحد ، اثنان ، ثلاثة !

وما كان ينطق بالرقم الأخير ، حتى كان كلّ منهما قد خلع طاقيته ورماها بعيداً .

ربما لا تصدقون يا أصدقائى ما حدث بعد ذلك ، فإن كلاّ منهما ما إنْ رأى صاحبه وقد زالتْ به المصيبة نفسها ، حتى راح يزأ به ويسخر من أذنيه الطويلتين ويضحك ضحكاً عالياً ، ويُقهقه قهقهة مسموعة ، وذلك بدلا من أن يشعر بالخجل أو الحزن أو الأسف لتلك المصيبة .

وظلّ الاثنان يضحكان بلا انقطاع ، يضحكان ويضحكان ، حتى وجعتهما جنُوبهما .

لكنّ فتيل القنديل سكت فجأة ، وتراجع إلى الوراء وقد اصفرّ وجهه ، وصاح قائلا :

ـ النجدة يا بينوكيو ، النجدة !

ـ ما بالك ؟

ـ ... آه ، إنى لا أستطيع أن أقف معتدلا .

فقال بينوكيو وهو يتعثّر ويبكى : « وأنا أيضاً لا يمكننى الوقوف معتدلا ... آ ... ى ... ! » .

ولم يلبثْ كلٌّ منهما أن انكفأ على وجهه فوقع على يديه ، وبدأ يجرى فى العرفة على أربع ... !

وبينما كان يجريان ، انقلبتْ أذرعهما أرْجُلاً ، وطال وجهاهما ، وأصبحا وجهيْ حمارين . وتغطى ظهر كل منهما بشعر رمادى فاتح ، منقَّط بنقط سود .

وأفظعُ من كل ذلك ، أنّ هذين الولدين التَّعِسين ، شعرا بالذلّة والمرارة ، حين أحسّ كلٌّ منهما أنّ قد صار له ذيل ينبت ويطول . حينئذ غلبهما الخجل الشديد والحزن القاتل ، فراحا يبكيان ويشهقان بالعويل ، ويتنديان حقدُهما النمس .

آه ، لو أنهما بقيا ساكتين ، ولم يفتحا فيهما للبكاء .

لقد وجدا أنهما — بدلا من البكاء والشهيق — يَهُقان كالحمير !

وراح نَهيقهما يعلو ويزيدُ وضوحاً : « هى ... ها ! هى ... ها ! هى ... ها ! » .

ودق الباب فى هذه اللحظة وقال قائل :

« افتحا الباب . إنى أنا الرجل الصغير الضاحك ، الذى جاء بكما إلى هذا المكان . افتحا لى بسرعة ، وإلا سامت العاقبة جداً جداً » .

عند ما رأى الرجل الصغير الضاحك أنهما لم يفتحا له الباب ، رفسه بقدمه ففتحه وقال ضاحكاً ضحكته المعتادة : « مَرْحى ، مرحى ! إنكما تَهُقان بمهارة ولباقة ! لقد عرفتُ فى الحال أن النهيق سيقكُما . والآن هأنذا هنا معكما ! »

فلما سمع « الحماران » هذا الكلام ، بقيا مكانهما واقفيْن ساكتين ، لا يَهُقان ولا يقولان كلمة واحدة ، وقد تدلّى رأساهما ، ودخل ذيلاهما بين فخذيْهما !

وراح الرجل الصغير الضاحك ، أول الأمر ، يُلاطفهما ويُداعبهما ويمسح بيديه جلدهما ، ثم أخرج من جيبه « حَكَّة » ، ومشطهما بها تمشيطاً جيداً . إلى أن صارا يبرقان ويلمعان كالمرآة ، وحتى صار بالإمكان أن يرى الإنسان وجهه فى جلدهما ... ! وحينئذ وضع على ظهر كل منهما سرجاً وبى فى لجاماً ، وساقهما إلى السوق ليبيعهما — كما كان أمله — بمبلغ كبير . فإن المشترين الذين يريدون حميراً كانوا فى الحقيقة كثيرين !

فأما قتيل القنديل فقد اشتراه فلاّح كان حماره قد مات فى اليوم السابق .

وأما پينوكيو فقد اشتراه صاحبُ ملعب للحيوانات المتوحشة (سِرْك)

وفرقة من المهرجين والبهلوانات ، اشتراه ليعلّمه القفز والرقص مع غيره من حيوانات الفرقة !

هل فهمتم الآن يا قُرائى الأعزاء تلك الصّنعة اللطيفة التى يحترفها الرجل الصغير الضاحك ، هذا الوحش الصغير الحجم ، القاسى القلب ، الذى كان ظاهرُه لبناً وعسلاً؟ لقد كان يدور فى الأرض بعربته الفخمة من وقت لآخر ، ليجمع بوعوده الجميلة ، وتلطّفاته المؤدبة كل الأطفال الذين لا يحبون كتبهم ومدرستهم ، ولا يريدون الذهاب إليها ، ثم يحملهم إلى « بلد اللعب » لكى يقضوا أوقاتهم فيها بين اللهو واللعب والتسلية والمسرّات ، إلى أن يصبحوا حميراً ، بسبب تَمْوِهم ولعبهم وعدم اهتمامهم بالكتب والتعلم واستذكار الدروس ، فيفرح هو بذلك ويأخذهم إلى السوق ليبيعهم .

لقد أصبح هذا الرجلُ الملعون فى سنوات قليلة غنياً جداً جداً ، وصارت ثروته تُعَدُّ بالملايين !

أنا لا أعرف ما جرى بعد ذلك لفتيل القنديل ، لكنى أعرف أن پينوكيو المسكين كانت حياته الجديدة هذه — من أول الأمر — شقاءً فى شقاء ، حياة كلها تعب وسوء معاملة .

فإنه لما أُخذ — بعد شرائه — إلى الإصطبل الذى سيعيش فيه ، ملأ له سيدُه الجديد علّافته بالتبن . لكن پينوكيو ما إن ذاق التبن حتى بصقه فى الحال .

حينئذ غضب سيده ، وملأ له العلّافة بالدّريس . لكن پينوكيو لم يعجبه الدريس أيضاً .

فزاد سيده غضباً ، وصاح قائلا : « آ ... » ! حتى الدريس لا يعجبك ! اتركْ لى أنا هذا الأمر ، أيها الحمار الماهر ، فإن بإمكانى إن كنتَ تريد أن تُصغى برفقتك هذا العلف وقبولك ذاك ، أن أسوّى الأمر معك ، وأشفيك من هذا الدّاء الوبيل ! . »

وبدأ معاملته السيئة بأن ضربه بسوطه على أقدامه ضربة مؤلمة ، حتى صاح پينوكيو من شدة الألم وبكى قائلا :

— هيه ... هو ! لا يمكننى أن أهضم التبن !

ففهم سيده ما أراد أن يقوله ، لأنه كان يعرف لغة الحمير ، وقال له :

— إذنْ فكل الدريس !

— هيه ... هو ! إن الدريس يوجع بطنى !

— وهل تظن أنى سوف أطعم حماراً مثلك صُدور الفراخ وفخذ الخروف ؟

ثم أمسك سوطه غاضباً ، وضربه على أقدامه ضربة مُوجعة ، رأى پينوكيو بعدها من الأفضل أن يبقى هادئاً ساكتاً ، فلم يقل كلمة واحدة . فتركه الرجل وحده ، وأقفل باب الإصطبل .

وكان قد انقضى على أكلته آخر مرة — قبل أن يصير حماراً —

زمن طويل ، فاشتدّ به الجوع ، حتى جعله يتلاعب . فلما تلاعب فتح فمه الكبير فتحة واسعة كأنها فتحة النفق .

ومضت مدة أخرى ، لم يَعُدِ المسكين بعدها يطيق الام الجوع ، ولا لم يكن بالخلاة التي أمامه غير الدريس ، فقد قيل أن يأكل من الدريس شيئاً قليلا . فلما وضعه في فمه مضغه مدة طويلة فلما أراد أن يبلعه ، انقبض عينيه وبلعه ، ثم قال لنفسه : « ليس الدريس شيئاً رديئاً جداً كما كنت أتصور ! لكن أما كان الأفضل لي من كل هذا ، أن أذهب إلى المدرسة لأتعلم ؟ لو أني فعلت هذا لكنتُ في هذا الوقت ، بدلا من هذا الدريس ، آكل خبزاً طازجاً لذيذاً ، فوقه قطعة فخمة من السَّجق الفاخر الممتاز ! الصبر ، الصبر ، الصبر ! »

ثم إنه نام .

فلما صحا من نومه في صباح اليوم التالي بحث عن كمية أخرى من الدريس ، لكنه لم يجد منه شيئاً ، فإنه كان قد أكل في الليلة الماضية ، كل ما وضعه سيده أمامه من الدريس .

واشتدّ به الجوع ، فأراد أن يجرّب التين . فلما ملأ به فمه ومضغه قال لنفسه : « لا فرق بين طعم التين والأرز » . وكان في أثناء أكل التين ومضغه يقول : « الصبر ، الصبر ، الصبر ! إن ما في من التعس والشقاء ، قد يقع على الأقلّ غيري من الأطفال الكسالى الذين لا يحبون الكتب

والمدرسة ، ويكون لهم عِشرة وصحبة ! آ ... ه ، الصبر ، الصبر ، الصبر ! » .

ودخل سيّده الإسطبل في هذه اللحظة ، وسمعه يحدّث نفسه بهذا الكلام فقال له : « الصبر ، الصبر ؟ هل تظنني أيها الحمار الماهر قد اشتريتُك لأطعمك فقط ؟ لا ، لا ! إنما اشتريتك لتشتغل لي وتساعدني على كسب المال . تعالَ إذن الآن واعملْ وابذلْ جهداً ! تعال إلى الملعب (السرك) ، لأعلّمك كيف تمرُّ قفزاً من داخل الطوق ، وتمشي على يديك قرصاً من الورق المصوّق بالطوق ، وأن ترقص رقصات الفالس والپولكا والمازوركا على رجليك الخلفيتين ! » .

إذن فقد كان يتوجّب المسكين مُضطراً لأن يتعلم كل هذه الألاعيب .

لقد كلّفه ذلك شغلا متواصلا ، وتعباً شديداً ، خلال أشهر ثلاثة ، تلقّى فيها من الرجل كثيراً من الضربات بالسوط الموجع . وتمّ تعليمه .

وجاء اليومُ الذي أعلن فيه سيده عن حفلة مدهشة حقّاً ! فعلق في أركان الشوارع أعمدة تحميلٌ ألواحاً كبيرة عليها إعلانات بالخطّ العريض والألوان الزاهية ، وقد كُتب فيها :

حفلة عرض مدهشة فريدة

هذا المساء

القفزات الخطرة المعتادة والألاعيب العجيبة

يقوم بها كل أفراد الفرقة وكل خيول الملعب

وعلاوةً على ذلك

سيظهر في الملعب لأول مرة أعجبُ ما رأيتم

الحمارُ الصغير بينوكيو

المسمّى

نجم الرقص

وسيكون المسرح جميعه مُضاءً بالأنوار الجميلة الجذّابة

صدقوني يا إخواني إنّ قلتُ لكم إنّ المسرحَ كان ممتلئاً مزدحماً حتى لم يعُد فيه مكان يضع الواحد فيه قدمه . ولم يكن بالإمكان ، قبل بدء الحفلة بزمان طويل ، شراء مقعد في هذا الزحام ، ولو دفع الإنسان ثُقلَه ذهباً.

كانت كل المقاعد حول حلقة اللعب مملوءة بالبنات والصِّبيان الذين كانوا جميعاً يتحرّقون شوقاً لرؤية الحمار الشهير بينوكيو ، ومشاهدته يرقص ويقفز من خلال الطوق .

فلما انتهى الفصل الأول من الحفلة ، دخل المدير الحلقةَ ووقف أمام الجماهير .

وكان يلبس معطفاً أسود وسروالا ضيقاً مشدوداً على رجليه ، وحذاء يصل إلى ركبتيه .

وبعد أن انحنى للجمهور انحناءة خفيفة ، خطب خطبة مضحكة جداً ، قال :

« حضرات المحترمين ، سيداتي وسادتي ! »

« إن الموقّع هنا في أدناه ، الموجود الآن بمدينتكم فترة من الزمان ، يودّ أن يكون له الشرف العظيم والسرور العميم ، بأن يقدم لهذا الجمهور الذكيّ النبيل ، حماراً صغيراً مشهوراً ذائع الصيت ، نال من قبلُ شرف الرقص والقفز ، أمام ملوك جميع البلاد المهمة في أوربا وأمريكا والهند والصين » .

« إني أشكر لحضراتكم كلَّ الشكر تشريفكم الليلة ملعبنا . وأرجو أن تساعدونا بحضوركم الكريم ، وأن تشجعونا بتسامحكم إن وجدتم فينا عيباً أو نقصاً » .

وضحك الحاضرون كثيراً عند ما سمعوا هذه الخطبة وصفقوا كثيراً . لكن التصفيق زاد واشتد وطال وتضاعف حتى أصبح عاصفة حقيقية ، عند ما ظهر فى وسط الحلقة الحمارُ الصغير پينوكيو !

كان لابساً ثياباً فخمة نادرة : فلجامه جديد من الجلد اللامع ، بمماسك وأزرار من النحاس الأصفر البرّاق الجميل ، ووراء أذنه زهرة بديعة من الكاميلية البيضاء . وأما « معرفته » فكانت مجدلة ضفائر صغيرة ، يزين كلاهما شريط به زر أبيض من الحرير . وكان له حول وسطه شريط عريض من الذهب والفضة . وأما ذيله فربوط بشرائط حُمر وخضر وزرق من القطيفة البديعة . وبالاختصار كان حماراً صغيراً أنيقاً رشيقاً لطيفاً جداً جداً !!!

فلما قدّمه مدير الملعب للجمهور ، أضاف إلى خطبته السابقة الكلمات الآتية قال : « حضرات السادة المحترمين ! يهنئنى جداً ألا أخفى على حضراتكم ما لقيتُه من المتاعب الشديدة ، والمصاعب العظيمة ، فى اصطياد هذا الحيوان ، الذى كان يعيش فى البرّية حرّاً طليقاً ، يأكل ما يشاء ، ويرعى العُشب أينما شاء ، مُستقلا حسب هواه من جبل إلى جبل ومن سهل إلى سهل ، فى نواحى المناطق الحارّة . وأرجو أن تلاحظوا ما يبدو فى عينيه من توحُّش ، حتى إنى عند ما أحقتُ إحفاقاً ذريعاً فى إخضاعه وتأنيسه ، وجدتُ نفسى مضطرّاً لاستخدام السوط . لكنه مع ذلك ، ومع كلّ ما كنت أظهره له من ألوان الشفقة به ومعاملته

معاملة طيبة ، كنتُ أنتظر منه أن يقابلها بالشكر والحب — أقول إنه مع كل ذلك لم يردّ إلا قسوة ووحشية ، يوماً بعد يوم . فلما رأيتُ أنا كلّ ذلك ، فكرتُ فى اتّباع الطريقة التى اخترعها الأستاذ العظيم الدكتور « رُبّسوس » . فلما طبقتُها عليه وجدتُ فى جمجمته وَرَماً ، هذا وتقول كلية الطب بجامعة باريس إنه هو (أعنى هذا الورم) الذى يسبب دائماً تجدُّد نموّ الشعر ، كما كان السبب الحقيقى المباشر فى اختراع الرقص الدينى القديم ! فلما عرفتُ هذا ، بحثتُ أعلمه الرقص فتعلمه ، ثم علمته القفز من داخل الطوق والجاميل المبطنة بالورق . وإنى أترك لكم الآن أن تقدّروا مهارته ورشاقته ، وتحكموا له أو عليه ! لكنى قبل أن أنصرف أرجو أن تسمحوا لى بأن أدعوكم لحضور الحفلة البارية التى نُقيمها غداً بالليل . فإذا أصبحتم فوجدتم الجو رديئاً يُنذر بالمطر ، فاعلموا أننا سوف نؤجل حفلتنا اليوم من الليل إلى الصباح ، فى الساعة الحادية عشرة بعد الظهر تماماً تماماً ، بلا أقل تغيير أو تحوير !!! » .

ولما انتهى المدير من إلقاء خطبته تلك ، التحى للجماهير انحناءة عميقة أخرى ، ثم التفت إلى پينوكيو وصاح به قائلاً : « تعال يا پينوكيو وحيِّ قبل العرض هذا الجمهور المحترم : حضرات السيدات والسادة والأطفال والصبيان والبنات ! » .

فمشى پينوكيو فى طاعة رجليه الأماميتين للجمهور احتراماً وتحية ، وبقى راكعاً ، إلى أن « قرقع » له المدير بسوطه وصاح : « سِرْ ! »

فوقف الحمار الصغير ، وراح يدور حول الحلقة ، ماشياً طول الوقت .
وبعد قليل ، صاح المدير مرة ثانية وقال :
— اجرِ !
فأطاع بينوكيو الأمر . وضرب الأرض بحافره ، وبدأ يجرى .
— اركض !
فراح المسكين يركض ركضاً .
— أسرعْ !
فانطلق يجرى بكل قوته مسرعاً إسراعاً .
وفجأة رفع المدير يده فى الهواء ، وأطلق من مسدّسه رصاصة .
وهنا تظاهر الحمار بأنه جُرِحَ ، ووقع على أرض الحلقة كأنه مات ...
وبعد قليل قام واقفاً وسط الهتاف العالى والتصفيق والتهليل الصّاخب ، حتى لكان فى الإمكان سماعُ كلّ ذلك من مسافات بعيدة جداً .
ورفع بينوكيو رأسه ونظر إلى الجماهير المجتمعة المطلّة على الحلقة ، فلفتتْ نظرَه فى إحدى المقاصير سيدةٌ جميلة ، تلبس حول عُنقها سلسلة ذهبية بديعة ، يتدلّى منها قلبٌ من الذهب بداخله صورةٌ أرجوز ! فقال بينوكيو يحدّث نفسه ، وقد عرف السيدة فى الحال : « تلك صورتى أنا ! وأما السيدة فهى الإنسية العزيزة ! » .
وغلبه فرحه ، فحاول أن يصيح بها : « أيتها الإنسية العزيزة ! أيتها الإنسية العزيزة ! » .
لكنه ، بدلاً من هذه الكلمات ، خرجتْ من فمه نهقةٌ طويلة عالية :

« هيه ... هوه ! » ، ضحك لسماعها الحاضرون جميعاً ، وخصوصاً الأطفال الصّغار الذين كانوا موجودين .
ورأى المدير أن تبقه بهذه الصورة سوءُ أدب ، فأراد أن ينبهَه حتى لا يعيد ذلك مرة ثانية ، فضربه بمقبض سوطه على أنفه ضربة خفيفة .
فأخرج الحمار المسكين لسانه ، وبقى يلحس أنفه مدة طويلة — أكثر من خمس دقائق — لكى يُريح نفسه من الألم الذى أحسّ به بعد تلك الضربة .
لكن ما كان أعظمَ يأسَه حين استدار بعد ذلك لينظر إلى إنسيته العزيزة فى المقصورة مرة ثانية فوجد المقصورة خالية . لقد اختفت الإنسية !
وطار رأسُه وشعر كأنه يموتُ ! ثم امتلأت عيناه بالدموع ، وراح يبكى بكاء مرّاً . على أنه لم يلحظ ذلك أحدٌ من الحاضرين ، حتى ولا المدير نفسه ، الذى « طرقع » له بالسوط وصاح قائلا :
— مرْحَى يا بينوكيو ، مرحى ! والآن فلتُرِ حضرات السيدات والسادة ، كيف يمكنك أن تقفز برشاقة من خلال الطوق .
حاول بينوكيو ذلك مرتين أو ثلاث مرات . لكنه كان كلّما وصل إلى

الطوق ، فضل أن يمرّ من تحته . غير أنه — آخر الأمر — قفز من خلاله ، لكن قدميه الخلفيتين اشتبكتا فى الطوق ، فوقع على الأرض بثقله كله .

ووقف ، لكنه كان قد أُصيب بالعرج ، بل كاد يعجز عن العودة إلى الإصطبل مشياً !

وصاح الأطفال جميعاً ، وقد تألّموا لما أصابه : « أخرجوا پينوكيو ! إننا نُريد الحمار الصغير ! أخرجوا الحمار الصغير ! » .

لكن الحمار الصغير لم يظهر بعد ذلك فى هذا المساء .

وحين جاء الطبيب المختصّ بالحيوانات لزيارته فى الصباح التالى قال إنه سيظلّ أعرج مابقيَ من حياته . وحينئذ قال المدير لصبيّ الإصطبل : « وماذا أفعل أنا بحمار أعرج ؟ هل أطعمه بغير أن أستفيد منه ؟ لا ، لا ! خذْهُ إلى السوق فبِعْهُ ! » .

ووصلا إلى السوق ، ووجدا مشارياً ، قال :

— كم تُريدان ثمناً لهذا الحمار الأعرج ؟

— خمسة جنيهات .

— سأعطيكما خمسة قروش . فلا تتصوّرا أنى سأنتفع به . إنى لا أشتريه إلا من أجل جلده . فإنى أرى له جلداً سميكاً ، وأريد أن أصنع من جلده طبلة لفرقة الموسيقى بالمدينة .

بإمكانكم يا قُرّائى الأعزاء أن تتصوروا ما شعر به پينوكيو إذ ذاك ، لمّا عرف أنه سيصبح طبلة !

ولما دفع سيده الحديد القروش الخمسة ، سافه إلى صخرة بحوار البحر ، فربط فى رقبته حجراً كبيراً ، وحبلا طويلا فى قدم من أقدامه ، ثم دفعه فجأة إلى البحر دفعة شديدة أوقعته فى الماء .

ونزل پينوكيو مباشرة إلى قاع البحر ، بفضل الحجر الكبير المربوط فى رقبته . وجلس سيدُه على الصخرة — وقد أمسك بيده طرف الحبل — ينتظر موْتَه غرقاً ، لكى يتمكن بعد ذلك من سلخ جلده !

٣٤

بعد أن بقيَ الحمار الصغير تحت الماء ساعةً كاملة تقريباً ، قال صاحبه الحديد يحدّث نفسه : « لا بدّ أنه قد مات الآن غرقاً ! فلنشدّهُ ولنُخْرِجْه لنعمل من جلده طبلة فاخرة » .

وشدّ الحبل الذى كان مربوطاً بقدمه ، شدّ ، شد ، شد ، شد ، حتى ظهر طرفه على وجه الماء ...

هل يمكنكم يا أصدقائى الأعزاء أن تتصوروا ما حدث ؟ لقد وجد الرجل — بدلا من حمار ميت — أرجوزاً حيّاً يتلوّى ويتنفض انتفاض السمك الكبير !

فلما رأى الرجل الأرجوز الخشبيّ ، ظن أنه يحلم . لقد ضُعِقَ ، وانعقد لسانُه ، وانحبست الكلمات فى فمه ، وبقى فى دهشة عظيمة ، تكاد عيناه تخرجان من رأسه .

وعاد إليه بعد قليل بعض وَعيه ، فبكى وقال متأوِّهاً :

« أين ... أين ذهب الحمار الصغير الذى رميتُه فى الماء ؟ »

فأجابه الأرجوز ضاحكاً قال : « أنا الحمار الصغير ! »

— أنت ؟ !

— نعم أنا !

— آه يا لعين ! لا تُحاول أن تلعب علىّ شيئاً من ألاعيبك !

— ألعب عليك ألاعيبى ؟ لا يا سيِّدى ! بكلّ تأكيد ، لا ! إنى لا أقول إلا الصِّدق !

— ولكن كيف يمكن أن تكون أنت الحمار الذى رَميتُه فى البحر من بضع دقائق فأصبح الآن أرجوزاً من الخشب ؟ !

— لا بدّ أن ذلك قد تمّ بفعل ماء البحر ! فإنه يُؤثّر هذا التأثير فى بعض الأحيان !

— حاذِرْ ، حاذِر يا أرجوز . لا تحاول أن تلعب علىّ شيئاً من ألاعيبك ! إنى أُحذِّرك إنْ نفد صبرى !

— إذنْ يا سيدى ، هل تُريد أن تسمع حكايتى على حقيقتها ؟ لو خلّصنى هذا الحبل من قدمىّ حكيتُها لك .

واشتاق الرجل إلى سماع حكاية الأرجوز ، فحكّ ذقنه ، وأصبح بينوكيو جرّاً مرة ثانية ، وحينئذ قال :

— اعلم أنى كنت يوماً أرجوزاً خشبيًّا ، كما ترانى الآن تماماً ، وكنتُ على وشك أن أصبح ولداً حقيقيًّا ، كغيرى من الأولاد . لكنى لم أكُنْ أحب المدرسة ولا أستذكر دروسى ، واستمعتُ لرفقاء السُّوء ، فهربت من المدرسة ، وفى صباح يوم جميل ، محموم من نوى فوجدتنى قد أصبحتُ حماراً ، ذا أذُنين طويلتين وذيل طويل . أوه ! لشدّ ما خجلتُ من منظرى هذا ! أوه ! ليحمِكَ الله وأولياؤه يا سيِّدى العزيز من مثل هذا البلاء ، ليحمِكَ الله من أن تحس يوماً ما أحسستُ أنا به فى تلك الساعة من الخجل الشديد ! ثم إنى أخذتُ إلى السوق مع بقية الحمير ، وباعونى لصاحب ملعب الوحوش . وعلّمنى الرجل الرقص والقفز من خلال طوق . لكن حدث ذات يوم مساءً ، فى أثناء حفلة العرض الكبيرة ، أن وقعت على الأرض فأصبتُ بالعرج ، ولم يَعُدْ صاحب الملعب قادراً على الانتفاع بى ، أنا الحمار الأعرج ، فأرسلنى إلى السوق لبيعى ، فاشترتنى أنت .

— أعرفُ ذلك . لكنى دفعت ثمنك خمسة قروش ، وأنا الآن أريد قروشى الخمسة ، فمن ذا الذى يُعيدها لى ؟

— ولماذا اشترتنى ؟ ألكىْ تعمل طبلة من جلدى ؟ طبلة ؟

— نعم ، نعم ! والآن أين يمكننى أن أجد جلداً آخر ؟

— لا تيأس يا سيدى من رحمة الله ، فالدنيا مملوءة خيراً !

— أيها الحمار الوقح ، أهذه نهاية قصتك ؟

— لا ، فما زلتُ أريد أن أقول لك كلمتين اثنتين لا أكثر ، أختم بهما حديثى معك . إنك بعد أن اشتريتنى ، أحضرتنى هنا لتقتلنى ، ولأنك قد أحدثتَ شقة فى ، ربطتَ حجراً برقبتى ، ورمَيتنى به فى البحر . إنّ هذا الشعور الجميل شرف كبير لك ، وإنى لهذا السبب سأبقى طول حياتى شاكراً لك جميلك ، عارفاً بصنيعك . لكنك يا سيدى العزيز ، لم تحسب فى هذه المرة حساب الإنسية .

— ومَن هذه الإنسية ؟

— إنها أمى ، وهى كبقية الأمهات اللاتى يُحبين أطفالهن ولا يبعدن عنهم أبداً ، ويساعدنهم فى كل متاعبهم ، حتى حين يستحقُّون أن يُهمَل شأنهم ، بسبب هروبهم المرة بعد المرة ، وبسبب عصيانهم وعدم استماعهم للنصائح ، وبسبب أطعامهم القيحة المدمومة . فلما رأت الإنسية أننى معرّض لخطر الموت غرقاً ، أرسلت لى جماعة كبيرة جداً جداً من مختلف أنواع السمك . فلما اقتربت تلك الجماعة منى ، حسبتُ حماراً ميتاً ، فراحت تأكل لحمى بشراهة ونَهَم شديدين ! لم أكن أتصور قط يا سيدى أن السمك أكثر شراهة ونهماً من الأولاد ! لقد أكل بعضه أذنى ، وبعضه أكل أنفى ، وأكل بعضه رقبتى ومعزفتى وحوافرى بل جلد ظهرى . وكانت بين الجماعة سمكة كبيرة مؤدبة رَضِيتْ فأكلتْ ذيلى !

قال الرجل وهو يستمع لحديث الأرجوز مفزوعاً :

— لن آكل منذ اليوم سمكاً أبداً ، أبداً ! إنه لشىء جميل حقاً أن تفتح يوماً سمكة من « البورى » مثلاً أو المرجان فتجد فى بطنها ذيل حمار !

قال الأرجوز ضاحكاً : « إننا مُتفقان فى هذا الأمر . ثم اعلَمْ يا سيدى أن جماعة السمك حين انتهتْ من أكل جلد الحمار ولحمه (اللذين كانا يُغطّيانى من رأسى إلى أقدامى) وصلت طبعاً إلى عظامى ، أو إن أردتَ الدقة تماماً ، إلى الخشب الذى هو جسمى ، لأننى — كما ترى — مصنوع من الخشب . أقول لما وصلت جماعة السمك إلى هذا الخشب وعضّت العضة الأولى رأتْ أننى لست لحماً يُؤكل ، فنفرتْ من هذا الطعام الذى لا يهضم ، وانصرفت على عاجلة إلى سبيلها فى كل اتجاه ، دون أن تفكر حتى فى تقديم الشكر لى ، للأكلة الشهية التى كانت من نصيبها بفضلى ! وهذا هو السبب الذى وجدتَ أنت — حين شددتَ الحبل — بدل الحمار الميت أرجوزاً حياً » .

فصاح الرجل غاضباً قال : « إن كل ما قلت لا يهمنى ! إنما الذى يهمنى هو أنى دفعتُ خمسة قروش ثمناً لك ، وأنى أريد أن أسترجع ما دفعت . إنى أعرف ما سأعمله ! سآخذك إلى السوق وأبيعك خشباً للحريق !

— بهمنى إن أردت ، فلسْتُ لن يهمنى !

وإذ قال الأرجوز هذا ، قفز قفزة عالية طويلة أزالته فى البحر ،

فوق الأمواج ، ثم راح يسبح فرحاً ، وقال للرجل المسكين بأعلى صوته : « وداعاً يا سيدى ، وداعاً . عند ما تريد جلداً تصنع منه طبلة فاذكرنى ! » .

وظل يضحك وهو يبتعد سابحاً فى الماء ثم التفت — بعد قليل — إلى الرجل وقال بصوت أعلى : « وداعاً يا سيدى ، وداعاً ! عند ما تريد خشباً جميلا ناشفاً تُشعِلُ به ناراً فاذكرنى ! » .

وفى غضون حين أصبح بعيداً عن الشاطىء بُعداً عظيما ، حتى صار من الصعب على الإنسان أن يراه .

إنه فى الواقع لم يَعُدْ إلا نقطة سوداء صغيرة فوق سطح الماء ، ترفع من وقت لآخر ذراعاً أو قدماً ، أو تقفز على وجه الأمواج كأنها « دلفين » مَرِح سعيد .

راح بينوكيو يسبح من غير أن يُعَيِّنَ لنفسه وجهةً أو مكاناً يقصد إليه ، حتى رأى فى وسط الماء صخرة ناصعة ، كأنها رخام أبيض ، تقف عليها عنزة تثغو (تُمَأْمِئُ) وتشير إليه منادية .

وربما كان أعجب ما فى الأمر ، أن فرو العنزة لم يكن أسود أو أبيض أو مزيجاً من هذين اللونين كغيرها من الماعز ، بل كان لونه أزرق ، أزرق فاتحاً لامعاً ، ذكّرَه بشعر تلك الطفلة التى عرفها من زمن بعيد .

لقد بدأ قلب الأرجوز يدق دقًّا شديداً ! فلم يلبثْ أن ضاعف جُهْدَه وسبح مسرعاً نحو الصخرة . لكنه لم يكد يبلغ منتصف المسافة حتى رأى أمامه فوق صفحة الماء وحشاً بحريًّا مخيفاً ، ذا رأس مُرْعِبٍ ،

وفم مفتوح كأنه مغارة ، تَبِينُ فيه ثلاث طبقات من الأسنان مُفْزِعة ! وكان هذا الوحش المخيف يسبح نحوه مسرعاً .

هل عرفتم يا قرائى الأعزاء ما هذا الوحش المخيف ؟

إنه القرش الضخم الذى حدثتكم عنه فى هذه القصة غير مرة ، والذى كان الناس يسمونه « غول السمك والسمّاكين » ، وذلك بما كان يُحْدِثُه من تخريب وتدمير ، وما كان ينشره من فزع ورُعب بقسوته ووحشيته .

فزع بينوكيو المسكين فزعاً شديداً عند ما رأى هذا الوحش الفظيع ،

وحاول أن يروغ منه أو أن يروح من طريق غير طريقه ، أو يُسرع يميناً أو شمالاً ، أو أن يسبقه حتى يخلص منه ، لكن ذلك الفم الواسع الضخم ، المفتوح كأنه المغارة ، لاحقَهُ من الوراء مسرعاً كأنه السهم المنطلق !

و « مامّات » العنزة الصغيرة اللطيفة قالت : « أسرع يا پينوكيو ، أسرعْ ، بالله عليك ! » .

وبذل پينوكيو كلَّ جُهده ، كل ذرّة من جهده وطاقته .

« حاذرْ ، يا پينوكيو ، حاذر ، إن الوحش قد لحق بك ! ها هو ذا قد جاء ! أسرع ، أسرع ، بالله عليك ، وإلا ضِعتَ ! »

وبقى المسكين يسبح بأقصى قُوَّته ، حتى صار يحذر الماء كأنه الرصاصة المنطلقة .

لقد صار قريباً من الصخرة جداً ، وكانت العنزة الصغيرة اللطيفة واقفة على الماء ، وقد مدت له حافريها الأماميين ، لتساعده على الخروج من الماء !

لكن الفرصة فاتت ! فإن الوحش المخيف كان قد لحق به ، وما لبث أن شدَّ نفساً طويلاً ، فابتلعه كما يبتلعُ الإنسان بيضة مسلوقة .

وكان ابتلاعُه شديداً عنيفاً حتى اصطدم المسكين اصطداماً مؤلماً بجوف الوحش ، أصيب بعده بإغماء دام ربع ساعة !

ولما عاد إليه وعيه لم يعرف أين هو .... ! ! !

لقد كان كلُّ ما حوله ظلاماً حالكاً ، حتى لقد خُيِّلَ إليه أنه

قفص ، رأساً على عقب ، فى زجاجة كبيرة مملوءة بالحبر الأسود !

وبقى لحظة يتسمَّعُ ، لكنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق .

وكانت من وقت إلى آخر تهب عليه لفحة من الهواء البارد تلفح وجهه . وعجز أوّل الأمر عن معرفة المكان الذى يجيء منه هذا الهواء البارد ، لكنه ما لبث أن عرف أنه يخرج إليه من رئتى الوحش المخيف . ذلك لأن هذا الوحش المخيف كان مريضاً « بضيق فى التنفس » ، فكانت أنفاسُه هذا السبب أشبه شيء بريح الشمال الباردة عند هُبوبها .

وحاول پينوكيو فى البداية أن يتشجع ، لكنه حين تأكد أنه محبوس فى جوف القرش بدأ يبكى ويعول ويصرخ قائلا :

« النَّجدة ، النجدة ! هلاَّ جاءنى أحد ليُنقذنى ؟ » .

فأجابه صوت فى الظلام يقوله : « مَنْ ذا الذى يمكنه إنقاذك أيها الشقى ؟ » .

كان الصوت أشبه شيء بصوت القيثارة الناشزة . فلما سمعه پينوكيو وسط هذا الظلام الحالك الشديد سَرَتْ فى جسمه رِعْدَةٌ شديدة ، وجَمَدَ الدم فى عروقه من شدة الخوف وقال :

ــ مَنْ هذا الذى يتكلم هنا ؟

ــ أنا الذى أتكلم ، إنى « فاروص » مسكين ابتُلِعْتُ معك . وأنت ؟ أىّ نوع من السمك أنت ؟

ــ ليست لى بالسمك أيَّةُ علاقة ، إنى أرجوز !

– إنْ لم تكن سمكاً . فلماذا إذن جئتَ إلى هذا المكان ، فى جوف هذا الوحش ؟ .

– لم أجئ ، بل هو الذى ابتلعنى ! ماذا ، فى رأيك ، يمكننا أن نعمل الآن فى هذا المكان المظلم المخيف ؟

– نسلم أمرنا لله ، ونتنظر حتى يهضمنا القرش !

فعاد بينوكيو يبكى ويقول : « لكنى لا أريد أن أُهضَم ! » .

– ومن قال لك إنى أنا أريد أن أُهضَم ؟ أنا أيضاً لا أريد أن أهضم . لكى امتاز عليك بأنى على شىء من الفلسفة والتصوف ، يمكننى من أن أعزّى نفسى عند ما أفكر ، وقد وُلِدتُ فى أسرة « القاروص » ، أن الموت فى الماء أكرمُ ألف مرة من الموت مقليًّا فى الزيت !

– هذا كلام فارغ .

– إنه رأيى . والآراء ، كما يقول رجال السياسة عندنا فى أسرة القاروص ، يجب أن تُحترَم !

– مهما يكن الأمر ، فإنى أريد أن أخرج من هذا المكان . أريد أن أهرب ...

– اهرب إذن إنْ أمكنك ... !

– هل تظنه كبيراً جداً ، هذا القرش الذى ابتلعنا ؟

– إن جسمه أطول من كيلومترين ، من غير أن نُدخِل فى حسابنا ذيله ورأسه .

ثم إنّ بينوكيو خُيِّلَ إليه فى أثناء هذا الحديث فى الظلام ، أنه يرى على البُعد بصيصاً من نور بعيد ، بعيد جداً ، فقال :

– ماذا يمكن أن يكون ذلك النور الخافتُ الضعيف البعيد جداً هناك ؟ .

– ربما كان أحد زُملائنا فى البؤس ، ينتظر مثلنا الوقت الذى يتم فيه هضمُه .

– إنى ذاهب لأتبيّن الأمر . فلعله يكون سمكة عجوزاً ، يمكنها أن تُرشِدَنا إلى طريق الهرب من هذا المكان المظلم .

– أرجو أن يتحقّق لك هذا الأمل يا عزيزى الأرجوز .

– وداعاً أيها القاروص العزيز .

– وداعاً يا أرجوز . أرجو لك توفيقاً وحظّاً سعيداً .

– أين نلتقى ثانية ؟ .

– من يدرى ؟ ربما كان الأفضل ألا نفكر فى شىء من مثل هذا !

٣٥

عند ما ودّع بينوكيو « القاروص » بدأ يتحسّس طريقه فى الظلام الحالك فى جوف القرش ، كان يتقدم حذراً خطوة بعد خطوة فى ذلك الظلام الدامس ، نحو النور الضئيل الذى كان يلمع ضعيفاً من بعيد .

وإذا كان يتقدم قليلا قليلا ، يلفت قلمه في أكوام الشحم والماء والزيت المتراكمة ، وتم رائحة قوية ، كرائحة الزيت المغلي والسمك المقلي .

وكان كلما تقدم خطوة زاد الضوء وضوحاً . وبقي يمشي ويمشي ، وأخيراً وصل . فماذا رأى ؟

سأعطيكم يا قرائي الأعزاء ألف فرصة تخمنون فيها .

لقد وجد مائدة صغيرة ، عليها شمعة منيرة قائمة في زجاجة خضراء . وفي المائدة يجلس رجل عجوز أبيض اللون جداً ، كأنه من الجليد

أو القشدة ، وكان يأكل سمكاً حياً ، مستلذاً بالحياة ، حتى لكان السمك يتخبط فيخرج من فمه متطايراً مزلقاً في أثناء الأكل !

لما رأى بينوكيو هذا المنظر غمرته موجة من الفرح العظيم . وكانت الفرحة مذاجة حتى كاد يغمى عليه .

لقد أراد أن يضحك وأن يبكي وأن يتكلم . فيتحدث عن مائة شيء وشيء . لكنه بدلا من كل ذلك فأغا وتأتأ بكلمات ناقصة ليس لها أي معنى . وأخيراً ، وبعد جهد جهيد ، لمكنه أن يصرخ صرخة فرح عالية . وفتح ذراعيه إلى أبعد ما يمكنه ، ثم قذف بهما حول رقبة الرجل العجوز وهو يقول :

ـ آه يا أبي ، يا أبي العزيز ! هل وجدتك أخيراً ؟ إن أتركك بعد اليوم أبداً ، أبداً ، أبداً ....

فحرك الرجل عينيه فركاً شديداً وقال :

ـ إذن فعيناي لا تخدعاني ! أأنت حقاً ولدي العزيز بينوكيو ؟

ـ نعم ، نعم ، أنا بينوكيو ، أنا بينوكيو يا أبي العزيز . إياك إذن لم تنسني ، لم تنسني ! آه يا أبي ، ما أطيبك وأكرمك ! إن مجرد ذكرى ا ... آه ! ولكنك يا أبي حين تعلم كم من المصائب نزلت بي ، وكم اضطربت أموري وأحوال منذ ... ! هل تعرف يا أبي المسكين أني في نفس اليوم الذي بعت أنت فيه سترتك لتشتري لي بثمنها كتاباً

أذهب به إلى المدينة ، هربتُ لأتفرّج بالأرجوزات ، وأنّ صاحب الملعب كان على وشك أن يضحّي في النار ليمّ شواء خروفه ؟ لقد أعطاني الرجل بعد ذلك خمسة جنيهات ذهبية لأحملها إليك بالبيت ، لكني قابلتُ في الطريق الثعلب والقط ، فأخذاني إلى فندق « أبي جلمبو الأحمر » . وهناك أكلا كالذئاب الجائعة . ثم إني مشيت بالليل وحدي ، فقابلت التاليين اللذين راحا يجريان ورائي ، وصرتُ أجري ، وهما من ورائي يجريان ، وأجرى وهما من ورائي يجريان ، وأجرى وهما من ورائي يجريان ، حتى لحقا بي وطشّاني بفرع شجرة كبيرة . وتركاني . فأرسلتُ في الظلمة الجميلة ذاتُ الشعر الأزرق عربة حملتني إلى بيتها . ولما رآني الأطباء قالوا في الحال : « إنه إنْ لم يكن ميتاً ، فهذا دليل على أنه حيّ ! » . ثم إني كذبت فطال أنفي ، وبقي يطول حتى عجزتُ عن الخروج من الباب . وذهبتُ بعد ذلك مع الثعلب والقط لأدفن جنيهاتي الذهبية الأربعة — لأني كنت قد أنفقتُ الخامس في الفندق . وضحك البغاء مني . وبدلا من ألفين من الجنيهات الذهبية ، لم أجد شيئاً ! فلما سمع القاضي بذلك حبسني في الحال إرضاءً لهما . ولما خرجتُ من السجن رأيتُ عنقوداً من العنب في الغيط ، وأمسكني الفخ . وكان الفلاح محقاً جداً حين وضع في رقبتي طوقاً ، وربطني بسلسلة الكلاب ، وكلّفني حراسة حشّ الفراخ . لكنه بعد ذلك تبيّن أني بريء ، فأطلق سراحي . ثم إنّ الثعبان ذا الذيل الطويل الذي كان يُخرج دخاناً كثيفاً ،

بدأ يضحك ويُقهقه حتى انفجر شريان دمه . وبعدئذ وصلتُ إلى بيت الطفلة الجميلة ، لكنها كانت قد ماتت . ورأتني الحمامة أبكي فقالت : « رأيتُ أباك يصنع قارباً ليذهب به للبحث عنك » . فقلت لها : « آه ، لو أنني كان لي جناحان ! » فقالت : « هل تريد أن تذهب إلى أبيك؟ » . قلت : « هل أريد ؟؟؟ طبعاً أريد ! لكن من ذا الذي يأخذني إليه هناك ؟ » . قالت : « أنا آخذك » . فقلت : « كيف؟ » . قالت : « تركب على ظهري ! » وبقينا طائرين الليل بطوله ، حتى إذا طلع الصبح ، رأينا صيادين ينظرون إلى البحر ويقولون : « هناك رجلٌ مسكين في قارب صغير يكاد يغرق ! » . وعرفتُك أنا في الحال ، لأنّ قلبي قال لي إنك الشخص الذي في القارب ، مع أنك كنتَ بعيداً ، بعيداً جداً . وأشرتُ إليك بيدي لكي ترجع إليّ ... » .

قال جيبتو : « وأنا أيضاً عرفتُك في الحال . وكان الواجب أن أرجع فرحاً مسروراً ، لكن الأمواج كانت عاليةً هائجة فقلبتْ قاربي . وكان يجاورني إذ ذاك قرش ضخم فطلع يحيف . فلما رآني ، سبح إليّ مسرعاً ، ثم أخرج لسانه وابتلعني مرة واحدة ، كأني قطعة من الكعك الليذ » .

— وكم من الوقت بقيتَ محبوساً في هذا المكان ؟

— أكثر من سنتين ، سنتين يا والدي پينوكيو كأنهما مائة عام .

— وكيف أمكنك أن تبقى حياً هنا كل هذا الوقت ؟ وأين وجدتَ

الشمعة والكبريت تشعلها به ؟ من الذى أعطاك كل هذا ؟

ـ سأقصّ عليك القصة كلها . لقد أغرقت العاصفة التى قلبتْ قاربى ، سفينةٌ تجارية كبيرة فى الوقت نفسه . ولحسن الملاّحون جميعاً . لكنّ السفينة تحطّمتْ وغرقت . وكانت شهية القرش مفتوحة فى ذلك اليوم ، فابتلع السفينة بما فيها بعد أن ابتلعنى .

فقال بينوكيو مدهوشاً : « ماذا تقول ؟ ابتلع السفينة دفعةً واحدة ؟ »

ـ دفعةً واحدة يا والدى ، لم يبرُم منها إلا السارى ، لأنه اشتبك بأسنانه كما تشتبك شوكةُ السمك بأسناننا ، وكانت السفينة لحسن حظّى محملة باللحم المفروط والخبز المجفّف و « البسكويت » وزجاجات الماء والزيت المجفف والخمر والبن والسكر والشمع والكبريت . كل هذا الزّاد مكّننى من العيش عامين . لكننى الآن قد فرغ كل ما عندى من زاد ، ولم يتعدّ فى « مخزنى » شىء ، وعلبة الشمعة آخر ما عندى من الشمع .

ـ وبعد ؟

ـ وبعد يا بنىّ سنبقى فى الظلام .

ـ ليس لدينا يا أبى من الوقت ما نضيعه . فلنبحثْ عن طريق للهرب فى الحال !

ـ للهرب ... ؟ ؟ كيف ؟

ـ بإمكاننا أن نهرب من فم القرش ـ نقذف بأنفسنا منه إلى البحر ثم نسبح إلى الشاطىء .

ـ هذا كلام جميل يا عزيزى بينوكيو ، لكنى لم أتعلّمْ السباحة .

ـ هذا لا يهمّ ، فإن صاحبك ماهر ، وتستطيع أنت أن تركب على ظهره ، وسأحملك أنا فى أمان إلى الشاطىء سليماً معافىً .

فهز جيبتو رأسه ، وابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ لا فائدة من ذلك يا ولدى . فهل تظنّ أن أرجوزاً مثلك لا يزيد طوله على متر واحد ، يمكنه أن يحمل على ظهره مثلى ، ويعبر البحر سابحاً ؟

ـ جرّبنى وسترى ؟ وعلى أىّ حال إن كان مكتوباً لنا أن نموت فسيكون عزاؤنا إذ ذاك أننا نموت معاً ، وقد احتضن أحدنا الآخر .

وسكت بينوكيو ولم يقلْ أكثر من هذا ، بل راح إلى الشمعة فأمسكها بيده ، وسار أمام أبيه ليرشده إلى الطريق ، وهو يقول :

ـ اتبعنى ولا تخفْ !

وسار الاثنان فترة من الوقت فى جوف القرش وخلال معدته . فلما وصلا إلى حلقه الضخم ، وقفا قليلا وتطرا حولهما انتظاراً للفرصة المناسبة للهرب .

كان القرش قرشاً عجوزاً جداً ، مريضاً ـ كما تعرفون ـ « بضيق التنفس » كما كان مُصاباً بلمَطٍ فى القلب ، فكان لهذا السبب مُضطرّاً حين ينام أن يترك فمه مفتوحاً لكى يتمكن من التنفس .

فلما وصل بينوكيو إلى حلقه ونظر إلى أعلى ، أمكنه أن يرى السماء

ذات النجوم ، وقمراً كبيراً مُشرقاً ، فالتفت إلى أبيه وقال :

ـ هذه أنسب لحظة للهرب ، فالقرش نائم ، والبحر هادئ والقمر مُشرق منير ، كأنه شمس النهار . تعال إذن يا أبي ، اتبعني وستكون حرّ بين في بضع دقائق .

وأتبع بينوكيو القول بالعمل . فقد تسلّق هو وأبوه حلق الوحش ، حتى إذا أصبحا في ذلك الفم الواسع الشاسع ، مشيا فوق لسانه على أطراف أصابع أقدامهما . وكان لسان الوحش طويلاً جداً ، وعريضاً جداً ، كأنه ممرٌ طويل عريض من ممرات حدائق الحيوان .

وهمّا بالقفز إلى البحر . لكن القرش عطس في تلك اللحظة فهزهما هزة عنيفة شديدة ، أوقعتهما ورد تهما إلى معدته !

والتفّت الشمعة إذ ذاك ، وتُرك الأب وابنه في الظلام الحالك !

قال بينوكيو قلقاً :

ـ والآن ما العمل ؟

ـ لقد ضيعنا تماماً !

ـ ولماذا ضيعنا ؟ أعطني يدك يا أبي ، وحاذر أن تتزلق .

ـ أين أنت ذاهب ؟

ـ يجب أن نحاول مرة ثانية . تعال معي ولا تخف !

وأمسك بينوكيو أباه من يده . وسار الاثنان على أطراف أصابع أقدامهما . وتسلّقا حلق الوحش مرة ثانية . وسارا فوق لسانه ، وتسلّقا

صفوف الأسنان الثلاثة . فلما اقتربا من البحر وهمّا بالقفز قال الأرجوز لأبيه :

ـ اركب فوق ظهري وامسك بي جيداً . وعلى أنا ما تبقى .

ولما استقرّ جيبتو فوق ظهر ابنه ، قفز هذا بأبيه إلى الماء وراح يسبح كالسمكة .

وكان البحر هادئاً كأن ماءه زيت ، والقمر مُشرقاً منيراً جميلاً كأنه شمس النهار . وبقي القرش الخبيث نائماً نوماً عميقاً ، حتى لتعجز المدافع ـ إن هي أطلقت ـ عن أن توقظه .

٣٦

بينما كان بينوكيو يسبح في الماء متجهاً إلى الشاطئ بأسرع ما يستطيع ، لاحظ أن أباه كان يرجف رجفاناً شديداً ، كأنه مصاب بالملاريا .

فهل كان يرجف من البرد الشديد أو أنه كان خائفاً ؟ ربما كان ذلك من البرد والجوع معاً . على أن بينوكيو ظنّه خائفاً فقال مُطمئناً :

ـ تشجّع يا أبي ، تشجع ! سنصل إلى الشاطئ في بضع دقائق .

لكن الرجل العجوز كان يزداد قلقاً في كل لحظة ، وقال :

ـ ولكنّ أين ذلك الشاطئ المبارك ؟ إنى أنظر فى كلّ اتّجاه فلا أرى غير الماء والسماء !

ـ لكنّى أنا أراه . فإنى ـ كما تعرف ـ كالقطّ تماماً ، يقوى بصرى بالليل عنه بالنهار .

كان بينوكيو يتظاهرُ بالفرح والسّرور والمرح . لكنه كان فى الحقيقة قلقاً مضطرباً ، وبدأتْ تخونُه شجاعته . ويغلبُ عليه التعب وتضعفُ قوّتُه ، وتتقطع أنفاسه . ولم يزل الشاطئ بعيداً ... لكنه مع ذلك ظلّ يسبح ، حتى انقطعتْ أنفاسُه تماماً . وحينئذ التفتَ إلى أبيه وقال خائراً :

ـ ساعدْنى يا أبى ... إنى أموت !

لما أوشك الأب وابنه أن يموتا غرقاً ، سمعا صوتاً كالقيثارة العاشرة يقول :

ـ من هذا الذى يموت ؟

ـ أنا وأبى !

ـ إنى أعرف هذا الصوت ، أنت بينوكيو !

ـ بالضبط ، وأنت ؟

ـ أنا ، القاروص ، زميلك فى جوف القرش .

ـ كيف هربتَ ؟

ـ عملت مثل ما عملتما . لقد أرينى أنت الطريق فتبعتكما ، حتى تمكّنت أنا أيضاً من الهرب .

ـ أيها « القاروص » العزيز ، لقد وصلتَ فى أنسب وقت . فالله عليك ، وبحياة أطفالك الصغار ، إلا ساعدتنا على النجاة !

ـ من قلبى وبكل سرور ! أمسكا ذيلى ، واتركانى أسبح بكما إلى البر . وستصلان إلى الشاطئ فى أربع دقائق .

بإمكانكم يا قرائى الأعزاء أن تتخيّلوا إلى أن جيبتو وبينوكيو قبلا الفكرة فى الحال . لكنهما بدلا من أن يمسكا ذيل السمكة ، وجدا الأفضل و « الأريح » أن يجلسا فوق ظهرها .....

وقال بينوكيو بعد قليل :

ـ هل وزننا ثقيل ؟

ـ ثقيل ؟ ! إنكما أخف من الريشة ! إنى أحس كما لو كانت على ظهرى ضفدعتان فارغتان من أصناف البحر .

ووصل ثلاثتهم إلى الشاطئ بعد قليل ، فنزل بينوكيو أولاً ثم ساعد أباه على النزول . ثم التفت إلى القاروص وقال فى صوت به رعشة من فرْط التأثر .

ـ يا صديقى ، لقد أنقذتَ حياةَ أبى . ولا أجدُ من الكلمات ما أعبّر به عن شكرى لك وعرفانى بجميلك . فهل تسمح لى بأن أقبّلك قُبلة أضمّنها كلّ شكرى وعرفانى بالجميل ؟

فأخرج القاروص أنفه من الماء ، وركع بينوكيو على الأرض ، وطبع على فم القاروص قُبلة رقيقة . وتأثر القاروص أشد التأثر

هذا الصَّنيع الجميل ، الدَّالّ على الحب الخالص — ولم يكن قد اعتاد مثل ذلك من قبل — وحتى أن يغلبه التأثر وأن يُرى والدموع فى عينيه باكياً كالأطفال ، فأسرع بالغَوْص فى الماء واختفى عن الأنظار !

وطلعت الشمس .

وقدَّم بينوكيو ذراعه لأبيه ، الذى كان قد بلغ من الضَّعف حدّ العجز عن الوقوف على قدميه وقال :

— اتكىءْ علىَّ يا أبى العزيز ، ولنذهبْ ! سنمشى على مهل كالقوافل ، وسنقف حين تتعبُ لنستريح .

— وأين نحن ذاهبان ؟

— سنبحث عن بيت أو كوخ نستطيع أن نطلب من أهله قطعة خبز لأكلها ، وشيئاً ننام عليه .

وصارا مائةَ من الخطوات لا أكثر ، رأيا بعدها فى جانب الطريق وجهين قبيحين يشحذان .

إنهما الثعلب والقط ، ساءتْ حالُهما وتغيَّرت ملامحهما ، كان القط فيما مضى يتظاهر بالعمى ، حتى عمى فعلا ، وهرم الثعلب وأكلت « العثة » شعرَ فروته جميعاً . حتى ذيله نفسه لم يعُدْ له وُجود : لقد نزل هذا اللص الناعس إلى أعماق الفقر ، حتى اضْطُرَّ يوماً إلى أن يبيع ذيله لتاجر جَوَّال ، كان يريد أن يصنع منه « منشة » لطرد الذباب !

قال الثعلب مُتَوَسِّلاً مستغيثاً : « يا بينوكيو أعْطِ هذين المريضين المسكينين شيئاً من فضلك وكرمك ! »

وقال القط بعده : « فضلك وكرمك ! »

قال بينوكيو : « وداعاً أيها المحتالان الخبيثان ! لقد خدعتُماني مرةً ولن تخدعانى بعد ذلك أبداً » .

— مَهْلاً يا بينوكيو ، أصبحنا بائسيْن تاعسيْن !

وقال القط بعده : « بائسين تاعسين ! »

— إنكما تستحقّان ذلك . يقول المثل : « المالُ الخبيثُ يذهب من حيث أتى » . وداعاً ، وداعاً أيها المحتالان الخبيثان .

— رحمةً بنا !

قال القط : « بنا ! » .

— وداعاً أيها المحتالان الخبيثان . تذكرا المثل القائل : « دقيقٌ إبليس كلُّه نخالة » ! .

— لا تحرمنا معونتك !

قال القط : « معونتك ! »

— وداعاً ، أيها الغزالان الجميلان . تذكرا المثل القائل : « من سرق سرة جاره ، مات عريان » .

ثم إن پينوكيو وأباه سارا من بعد ذلك هادئين مطمئنين فى طريقهما ، فوجدا بعد ما لا يزيد على مائة من الخطوات ، روضة لطيفة بوسطها كوخ صغير جميل ، مصنوع من القش . وأما سقفه فمن « الطوب » الأحمر والبلاط اللامع .

قال پينوكيو : « لا بد أن بهذا الكوخ أحداً ، فلنطرق الباب ! »

ودق الباب فسمع بداخل الكوخ صوتاً رقيقاً يقول :

— من الذى يدق الباب ؟

— رجل مسكين وابنه المسكين ، وليس معهما طعام ، ولا فى بيت .

— لفّ المفتاح فينفتح الباب .

ولفّ پينوكيو المفتاح فانفتح الباب . فلما دخلا الكوخ بحثا فى كل ركن من أركانه عن صاحب الصوت ، لكنهما لم يجدا أحداً . وحينئذ قال پينوكيو متعجباً :

— عجباً ! أين صاحب البيت ؟

— ها أنذا ، هنا ، فوق !

فلما نظر الأب وابنه إلى فوق ، وجدا « الصرصور المتكلم » واقفاً

على « عرق » خشب ، فانحنى له پينوكيو بأدب وقال :

— أوه ، أيها الصرصور العزيز .

— إذن أصبحتُ الآن صرصورك العزيز ؟! هل تذكرُ اليوم الذى طردتنى فيه من بيتك ورميتَ علىّ القدوم ؟

— معك الحق أيها الصرصور . وأنا الآن أن تطردنى كما طردتُك . لكن ارحمْ أبى يا الله عليك ، ولتأخذْك الشفقةُ به ، فإنه عجوز مسكين .

— سأشفق عليكما ، على الأب وابنه . فأنا لم أردْ بكلامى إلا أن أذكّرك بما نالنى منك من المعاملة الخشنة القاسية ، ولأعلّمك أننا فى هذه الدنيا واجبٌ علينا أن نعامل كلَّ مخلوق بالرحمة واللطف ، لكىْ يعاملنا الناس بالرحمة يوم نحتاج .

— معك الحقُّ أيها الصرصور ، معك الحق تماماً . وسأذكرُ درسك هذا . ولكنْ قلْ لى كيف أمكنك أن تشترى هذا الكوخ الجميل ؟

— هذا الكوخ أهدتنى إلىّ بالأمس ، أهدته فى عزة لطيفة ذات شعر أزرق جميل .

— وأين هى هذه العزة ؟

— لا أعرف .

— ومتى تعود ؟

— لن تعود أبداً . لقد رحلتْ بالأمس حزينةً مثألة تشكو ثغاء (تمامىْ) وكأنما تقول : « أيها المسكين پينوكيو ! لن أراك بعد اليوم أبداً ،

فلا بد أن القرش المخيف قد أكلك ! » .

— هل قالت ذلك ؟ إذن فهى الإنسية » ، هى الإنسية بالتأكيد ، إنسيتى الصغيرة العزيزة الحبوبة !

وبكى پينوكيو وسالتْ دموعُه غزيرة كأنها الفيضان . ودام بكاؤه فترةً لا بأس بها ، مسح بعدها عينيه ، ثم أعدّ بليبشّو فراشاً مُريحاً من القش ، وقال للصرصور المتكلم :

— قل لى أيها الصرصور ، أين يمكن أن أجد لأبى فنجاناً من اللبن ؟

— إن « جانجوه البستانى » يعيش على بعد ثلاثة غيطان من هذا المكان ، وعنده بقرة حَلُوب . فإن ذهبتَ إليه أعطاك ماتطلبُ من اللبن .

راح پينوكيو جرْياً إلى بيت البستانى ، لكنّ الرجل قال له :

— ما مقدار ما تريده من اللبن ؟

— أريد فنجاناً واحداً .

— الفنجان ثمنه قرش . أعطنى القرش أولا ، تأخذ اللبن .

فقال پينوكيو حزيناً خجلاً : « لا أملك مليماً واحداً » .

قال البستانى : « هذا شىء مؤلم حقّاً ، فإن كنتَ لا تملك مليماً واحداً فأنا لا أملك أن أعطيك من اللبن نقطة واحدة » .

— قال پينوكيو : « صبراً إذن ، صبراً ! » واستدار لينصرف ، فقال جانجو :

— انتظرْ ، فربما أمكننا أن نتّفق . هل تُدير لى « الطلمبة » ؟

— وما « الطلمبة » ؟

— إنها الآلة التى ترفع الماء من « الصهريج » لرىّ البستان .

— أحاول .

— حال ، حال . إن رفعتَ من الماء مالة « جردل » ، أعطيتك فنجاناً من اللبن .

— وهو كذلك .

وأخذ جانجو الأرجوز إلى البستان وعلّمه كيف يُدير « الطلمبة » .

وبدأ پينوكيو العمل فى الحال ، لكنه قبل أن يتمّ رفع المالة « جردل » ، كان العرق قد راح يتصبّب من جسمه جميعاً ، من رأسه إلى قدميه ! فهو — كما تعلمون — لم يشتغلْ طول حياته يوماً واحداً .

قال البستانى : « لقد كان حمارى يقوم فى بهذا العمل ، لكن المسكين يموت اليوم » .

— وأين هو الآن ؟

— فى الإصطبل .

— وهل يُمكننى أن أذهب لأراه ؟

— طبعاً ، طبعاً .

ذهب پينوكيو إلى الإصطبل ، فلما دخله رأى حماراً صغيراً لطيفاً نائماً فوق القش ، على وشك الموت من شدّة الجوع والتعب . فلما نظر إليه من قريب مُدقّقاً ، شعر بما يُشبه القلق وقال لنفسه : « أظننى أعرف

هذا الحمار ، فليست ملامحه جديدة على » .

وانحنى فوقه وكلّمه بلغة الحمير قال :

— من أنت ؟

فلما سمع الحمار كلاماً بلغة الحمير فتح عينيه ، وقال باللغة نفسها مُتَمْتِماً :

— أنا ... أنا ... أنا فتيل ... القنديل ...

ثم أغمض عينيه ومات !

— آوه ، فتيل القنديل المسكين !

ثم تناول حفنة من القش مسح بها دمعة تحدّرت على خده .

قال البستاني : « هل تأسف على حمار لا يساوي شيئاً ؟ إذن فماذا أفعل أنا ، أنا الذي اشتريته ودفعت ثمنه نقداً ؟ »

— أقول لك إنه ... كان صاحبي .

— صاحبك ؟ !

— نعم ، زميلي بالمدرسة .

فقهقه جانجو وقال : « ماذا تقول ؟ زميلك بالمدرسة حمار ؟ ! شيء جميل جداً جداً ! لا بد أنك تتلقى بالمدرسة دروساً جميلة جداً ! ! »

فشعر بينوكيو بالخجل الشديد ، ولم يُجِبْ بكلمة واحدة ، بل أخذ فنجان اللبن وعاد للكوخ .

ظل بينوكيو مُواظباً على هذا العمل خمسة أشهر طوال ، يصحو كل

يوم عند مطلع الفجر فيذهب إلى البستان ليُدير « طلمبة » الماء . فإذا انتهى من ذلك عاد لأبيه بفنجان اللبن .

ونفع اللبن أباه نفعاً عظيماً .

ولم يكتفِ بينوكيو بذلك العمل ، بل لقد تعلّم في أوقات فراغه صناعة السلال والمقاعد من الخوص والبوص .

وكان يبيعها بالسوق ليضمن نفقاته ونفقات أبيه جميعاً . كذلك صنع لنفسه ولأبيه عربة صغيرة لطيفة ، يركبانها للنزهة في الأماكن الخلوية ، حين يكون الجو صحواً جميلاً .

وأمّا المساء ، فكان الأرجوز يقضيه في تعلّم القراءة والكتابة . لقد اشترى بعلاليم كتاباً كبيراً من القرية المجاورة .

كذلك صنع بينوكيو من « الطين » قلماً يكتب به . فلما لم يجد حبراً ولا محبرة ، وضع في زجاجة صغيرة بعض عصير التوت ، واستعمله مداداً ...

والحق أنه بفضل مهارة بينوكيو ونفسه ، ورغبته في العمل وابتكاره ، تمكّن أبوه — وكان لا يزال ضعيفاً ، تحتاج صحته إلى عناية — من أن يحيا حياة هانئة مُريحة ، استعاد بفضلها صحته أخيراً . بل لقد تمكن

الأرجوز من أن يقتصد عشرة قروش ، اشترى بها لنفسه « بذلة » جديدة.

وذات صباح قال بينوكيو لأبيه : « إنى ذاهبٌ اليوم إلى السوق لأشترى لنفسى بذلة جديدة وطاقية وحذاء » . ثم ضحك وقال : « وعندما أرجع سأكون وجيهاً وجاهة ليس مثلها وجاهة ، رشيقاً أنيقاً فخماً ، ومتحبباً متى رأيتنى سيداً من كبار القوم » .

وانطلق يجرى إلى السوق سعيداً راضياً فرحاً . وفجأة سمع صوتاً خافتاً ينادیه من خلال الزرع . فلما التفت ليرى الذى يكلمه ، رأى قوقعة لطيفة تزحف على الأرض وتقول : « ألا تعرفنى ؟ » .

– ربما ، لكنى لستُ متأكداً ...

– ألا تتذكرُ القوقعةَ التى كانت وصيفة للإنسية ذات الشعر الأزرق؟ ألا تتذكرُ الوقتَ الذى نزلتُ فيه السلم لأفتحَ لك البابَ لكى تدخلَ ، فوجدتُكَ وقد انغرزتْ قدمُك فى الباب ؟

– أذكرُ ، أذكر كلَّ شىء . وأين تركت إلسيتى الرقيقة ؟ وماذا تعمل الآن ؟ وهل سامحتنى ؟ ألا تزال تذكرنى ؟ أولا تزال تُحبنى ؟ وهل هى الآن بعيدة جداً من هذا المكان ؟ وهل بإمكانى أن أذهبَ إليها لأراها ؟

سأل بينوكيو هذه الأسئلة جميعاً بغاية السرعة ، ودون أن يتوقف لحظة واحدة . لكن القوقعة بِبُطئها المعهود قالت له : « إنَّ الإنسية يا عزيزى بينوكيو مريضة بالمستشفى » .

– بالمستشفى ؟!

– نعم ، مع الأسف الشديد ! لقد نزلتْ بها المصائب فمرضتْ مرضاً شديداً ، مرضاً شديداً جداً . فضلاً عن أنها – المسكينة – لا تملكُ من النقود شيئاً . بل إنها لا تملك كسرةَ ناشفة من الخبز !

– هل هذا ممكن ؟! آوه ، هذه أخبار سيئة جداً ! الإنسية المسكينة مريضة؟ لو أنى كنت أملكُ من الجنيهات مليوناً لأعطيتها إياها جميعاً. لكن كل ما أملكه الآن عشرة قروش لا أكثر ... عشرة قروش لا أكثر! وهذه هى ! لقد كنتُ ذاهباً إلى السوق لأشترى لنفسى بذلة جديدة . حُلْ إذن هذه القروش العشرة ، أيتها القوقعة ، واحملها إليها بسرعة . احملها بسرعة للإنسية الرقيقة الرقيقة .

– وبذلتُك الجديدة .

– لا يهمُّنى أن أبقى بغير بذلة جديدة ما دامت هى بخير . بل إنى لأفضل ألف مرة أن أبيع كل شىء حتى هذه الخرق القديمة التى ألبسها لكى أساعدها . اذهبى إليها أيتها القوقعة وأسرعى فى مشيك . فإذا رجعتِ إلىّ بعد يومين ، فسأعطيك لها نقوداً أخرى . لقد اشتغلتُ حتى اليوم لكى أحُول أبى . لكنى من الآن سأزيد ساعات عملى خمساً فى كل يوم لأتمكن من أن أعُول أبى الرقيقة كالملك. وداعاً إذن أيتها القوقعة ، وأسرعى بالله عليك ، وسأنتظر مجيئك إلىّ بعد يومين .

وأسرعتِ القوقعة ، خِلافاً لعادتها ، وراحت تجرى كسحلاة

(محلية) الصيف .

ولما رجع بينوكيو إلى أبيه سأله أبوه :

ـ أين بذلتك الجديدة ؟

ـ لم أجد واحدة تناسب قدّي .

وبقي بينوكيو يشتغل في تلك الليلة حتى الفجر . لقد صنع ستّ عشرة سلة بدلا من ثماني سلال .

وذهب إلى فراشه ونام . فرأى فيما يرى النائم الإنسية جميلة مبتسمة ، تميل عليه في حب وحنان وتُقبّله وتقول :

ـ مبرّحى ! يا بينوكيو مبرّحى الذي ردّ الجميلَ بالجميل وكرّم خُلُقك ، قد سامحتُك وعفوتُ عن كلّ ما كان منك من هرب وغير ذلك . فالأطفال الذين يُحبون والديهم ، ويساعدونهم عند ما يمرضون أو يحتاجون ، يستحقّون المدح والحب والثناء ، ولو لم يكونوا كما يجب من حيث الطاعة والسلوك الجميل . كُنْ عاقلا في المستقبل تكُنْ سعيداً .

وانتهى كلامُها ، فانتهى الحلم ، ومعه بينوكيو متعجباً كلّ العجب .

ويمكنكم يا قرائي الأعزاء أن تتصوّروا مبلغ دهشة بينوكيو وسروره ، حين رأى نفسه في الصباح وقد صار ولداً حقيقياً ، لا أرجوزاً من الخشب ! !

ونظر حوله فوجد كوخ القش قد صار غرفة جميلة صغيرة أثاثُها بسيط ، لكنه جميل مزوّق مزخرف .

وقفز من السرير واقفاً على قدميه ، فوجد على أحد المقاعد بذلة

جديدة فاخرة جميلة ، وطاقية بديعة ، وحذاء لامعاً براقاً كأنه صورة مرسومة .

وأسرع يلبس هذا كله ، وطبعاً وضع يديه في جيبه فوجد ... وجد كيساً نقود صغير من العاج النادر البديع ، وقد نُقشتْ عليه هذه الكلمات :

« الإنسية ذات الشعر الأزرق تعيد لبينوكيو قروشه العشرة ، وتشكر له كرمه » .

وفتح بينوكيو الكيس فرأى فيه ـ لا قطعةً فضية من ذات العشرة القروش ، كما كان ينتظر ـ بل عشرين قطعةً ذهبية جديدة لامعة ، لم يَمسّها من قبله أحد .

وذهب إلى المرآة ليرى نفسه ، فلم يعرفها ! إنه لم ير الصورة التي يعرفها من قبل ، صورة الأرجوز الخشبي ، بل رأى ولداً مليحاً ، تدلّ ملامحُه على الحبّ والذكاء والرقة ، ذا شعر ذهبيّ وعينين زرقاوين ، تنظران إليه نظرات سعيدة راضية ، مليئة بالفرح والمرح كأيام العيد السعيد .

وجاءته العجائب والمفاجآت السارة يتلو بعضُها بعضاً ، حتى لم يَعُدْ بينوكيو يعرف أمُستيقظٌ هو حقّاً أم نائم يحلم هذا الحلم الجميل بكل ما فيه !

وصاح فجأة وقال : « وأبي ، أين هو ؟ » .

ثم راح إلى الغرفة المجاورة ، فرأى فيها جيبتو صحيحاً مُعافى نشيطاً طيباً كما كان فيما مضى ، وقد عاود فنَّهُ القديم ، فن الحفر على الخشب. وكان فى تلك اللحظة يعمل إطاراً جميلاً مزخرفاً بالنقوش البديعة من أوراق الشجر والزهر ورؤوس الحيوان .

فألقى بينوكيو ذراعيه حول رقبته وقبله وقال : « فسِّرْ لى يا أبى كل هذا ، فسر لى هذا التَّغير الفاجيء العجيب! » .

— الفضل فى كل ما حدثَ راجعٌ إليك أنت ؟

— راجعٌ إلىَّ أنا ؟ ! وكيف كان ذلك ؟

— إنَّ الأطفال الذين يُصبحون طيبين مطيعين بعدأن كانوا أشراراً ، أشقياء ، يُكسبون العائلة بطاعتهم وطيبتهم وحُسن سلوكهم ، مظهراً جديداً ، وحياةً سعيدة بسَّامة.

— وبينوكيو الخشبىّ

القديم ، أين هو ؟ .

قال جيبتو « إنه هناك ! » وأشار بإصبعه إلى أرجوز خشبىٍّ كبير مسنود إلى كرسى ، وقد مال رأسه على كتفيه ، وتدلتْ ذراعاه ورجلاه الواحدة فوق الأخرى .

كان مُدهشاً حقاً أن يكون الأرجوز هناك فى تلك اللحظة .

والتفتَ بينوكيو ونظر إلى الأرجوز لحظة ، ثم قال لنفسه راضياً سعيداً مسروراً :

« كنت مسخرة وهُزُؤاً حين كنت أرجوزاً ! فما أسعدنى الآن وقد أصبحتُ . . . . ولداً حقيقياً ! » . . .